سـعـيـدة

" درب الأربعين "

روايـــة

شاهيناز محمد الفقي

سـعـيـــدة

" درب الأربعـين "

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر.

روايــة: سعيدة " درب الأربعين ".

الكاتبة: شاهيناز محمد الفقي.

الطبعة الأولى: يناير 2017

رقم الإيداع: 1532 / 2017

الناشــر:

"دار أدباء 2000 للنشر والتوزيع"

المدير العام: **منة عامر.** Mobile: 01099654718

E.mail: **Odabaa2000@gmail.com**

Website: **http://entashaaer.wix.com/odabaa2000**

Facebook: **https://www.facebook.com/Odabaa2000**

تصميم الغلاف: **محمد علي.**

تصحيح لغوي: **أحمد شوقي.**

جميع الحقوق @ 2017 محفوظة للناشر

"دار أدباء 2000 للنشر و التوزيع"

يمنع منعاً باتاً بدون إذن خطي معتمد من الناشر:-

نسخ أو إستعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيهاالتسجيل الفوتوجرافي و التسجيل على أي أشرطة أو أقراص صلبة أو مرنة مقروءة أو النشر عبر الإنترنت أو أي برنامج إلكتروني أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها أدوات حفظ المعلومات و إسترجاعها.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **"دار أدباء 2000 للنشر و التوزيع".**

هذة الرواية عمل أدبي من وحي خيال المؤلف
و شخصيات الرواية جميعها خيالية
أو تم إستخدامها فى إطار خيالي
و أى تشابه بينها و بين الواقع
هو محض الصدفة

إهـــــداء

الى كل من مر بحياتى تاركا اثرا طيبا.

أمي ثم أمي ثم أمي.

إلى أبي و أخوتي.

إلى ابنائي و كل من ساندنى فى الاوقات الصعبة

شاهيناز الفقى

الحريه ليست هبة تمنح

انما هى حق يكتسب.

""" ســـعـــيـــــدة """

"قريه شكا – دارفور- 1878"

تواردت انباء ثورة سليمان ابن الزبير فى السودان بعد تحديد اقامة الزبير فى مصر من قبل الخديوى اسماعيل الذى لم يجد بدا من هذا الاجراء.

فقد كان مقامه يخشى المواجهه بين الزبير و الحاكم الانجليزى غوردون و يعلم ان نتيجه هذه المواجهه ليست فى صالح مصر و السودان فى الوقت الحالى و نتيجه لهذا الاجراء قام سليمان اكبر ابناء الزبير و القائم باعماله و تجارته بثورة عارمه استغل فيها حماس الشباب السودانى و مقاومته للاحتلال الانجليزى و بالرغم ان سليمان كانت له اهدافه و مصالحه التى لا تخفى على احد الا ان الشباب السودانى اضطر لقبول التحالف معه فى ثورته رغبه منهم فى تحرير الوطن.

تزامنت ثورة سليمان مع الثورات فى دارفور ضد الحكم الانجليزى ، تتابعت الاحداث بشده و عنف مما اضطر غوردون الحاكم الانجليزى و بصفته المحتكر الرئيسى للتجاره بتأجيل تحرك القافله المتجهه الى المملكه المصريه حتى تهدأ الاوضاع ، و كانت القوافل تتحرك من دارفور الى مصر عن طريق درب الاربعين ، ذلك الطريق الصحراوى الذى يربط السودان بمصر و يستخدمه الحجاج للسفر من السودان و شمال افريقيا الى موانى البحر الاحمر فى مصر و منها الى ارض الحجاز مما اضفى عليه اهميه كبيرة و نال اهتماما من ولاه مصر و بخاصه اسماعيل الذى امر بانشاء نقاط لحمايه العابرين من اللصوص و قطاع الطرق.

و في ذلك اليوم و بينما كان غوردون الحاكم الانجليزى على السودان يتفقد القوافل وقعت عيناه على فتاه سمراء لا تتجاوز السابعه عشر مع

خمسه فتيات اخريات تتفاوت اعمارهن بين الثالثه عشر و السادسه عشر ، وقفت الفتاه بينهن تشبه مهرة بريه لم يتسنى لاحد ترويضها ، ممشوقه القوام ببشره سوداء لامعه و قد انطلقت من فوق راسها مئات الجدايل تزينها احجار صفراء و حمراء و خضراء و سترت نهداها بخرقه من القماش ربطتها من الخلف فى شكل عقده صغيره و ارتدت تنوره من ريش النعام تكشف عن ساقيها و فخديها اللامعين.

و قف غوردون مشدوها من ذلك الجمال الافريقى جمال القارة السمراء البكر و قد اجتمعت كل فتنة الكون فى الوجهه الاسمر المشرب بالحمرة من اثر شمس الجنوب التى تفننت فى صبغه كماشطه تزين عروس لليله زفافها و ذلك الانف الافطس الدقيق و تلك الشفتان الغليظتان الشهيتان كثمرة فاكهه استوائيه وقعت عن غصنها لتسكن وجه تلك الفاتنه السمراء ، اما عيناها التى انطبعت فيهما صورة نهر الكونغو فاكتسبت لونا فيروزيا لامعا شكلت مع باقى الملامح لوحه فنيه تنطق بابداع الخالق.

طال الوقت بغوردون شاردا امام تلك العينين التى ذكرته بحبه القديم "مارلا" ، سبح بخياله حتى لندن يتذكر اياما سعيده قضاها بين احضانها ، حبيبة عمره التى رفع لها رايه الاستسلام من اول يوم حين رأها تطعم البجع فى البحيرة عصرا ، لاحظت انه يطيل النظر اليها فابتسمت ابتسامه من يلقى التحيه بخجل ، لم يعد يتذكر من بدأ الحديث و لكنه يتذكر انه حديث لم ينتهى لمده خمس سنوات ، كانت تدرس القانون و كان هو يخدم فى مديريه خط الاستواء ، عمله شاقا ملتهبا و وجد عندها الراحه و السكينه ، ثقافتها لا حدود لها و طفولتها دائمه ، تضحك لابسط الاشياء ، تنفجر فى نوبه ضحك لا تنتهى الا بعد ان ياخذها بين ذراعيه و يمطرها بقبلاته كطفلة بين احضان والدها.

لم يكن يعكر صفوهما الا حبها للحيوانات الاليفه ، كلما وجدت قطا ضالا او كلبا ليس له مأوى تصحبه للمنزل و تنهمك فى تجهيز مكان لمبيته و اطعامه و تنظيفه ، و اكتظت حديقه المنزل بالحيوانات و قدم الجيران الشكاوى بحقها للشرطه حتى بدات تضع كل اموالها فى تجهيز ملجأ حقيقى للحيوانات المشرده و وجدت من يعاونها على هذا العمل ، زميل لها فى الجامعه مهتم بشئون البيئه و حقوق الحيوان و كانت هذه هى بدايه النهايه و بئر الهزيمه الذى سقط داخله و لم يستطع الخروج منه.

تنبه غوردون من شروده على صوت اجش يأمر الفتيات بالابتعاد عن المكان و الانزواء فى ركن لحين تحرك القافله ، كان يعلم بخبرته فى محاربه تجارة الرقيق و مكوثه فتره ليست بقصيرة فى السودان ان اولئك الفتيات تم اسرهن من الجنوب لبيعهن كجوارى و لكن حينما سأل التاجر عنهن ادعى انهن قريباته راحلات للعمل فى مصر ، لم يكن غوردون يستطيع التدخل لمنع التاجر من بيع الفتيات و بخاصه فى تلك الاجواء المتوترة و الثورات المتاججه فـآثر ان يتظاهر بتصديقه بدلا من ان يفقد هيبته مع ذلك التاجر الذى لن يتنازل عن ثروته بسهوله و لم تكن تلك المرة الاولى التى يبدى فيها غوردون استسلامه لتجار العبيد فقد كان يعلم ان كل من حوله يتواطىء لاستمرار هذه التجاره التى كانت سائده بين القبائل الافريقيه و متأصله فيها و قد كتب لاخته من قبل عن تجارة الرقيق المنتشرة فى افريقيا و كيف انه لا توجد خطط منظمه للقضاء على تلك التجارة اللا انسانيه و انهم يصدرون الفرمانات لتهدئه الحكومات المناهضه لتلك التجارة فقط و قصورهم و دواوينهم ملائى باولئك العبيد.

تجارة العبيد كانت تقلق اوروبا فى ذلك الوقت و انتشرت الكثير من الحركات التى تندد بتلك التجارة و اخذت الصحف و المجلات تعرض

وحشيه التعامل مع العبيد السود الا ان امريكا بعد ابادة السكان المحليين فى تلك القارة الجديده كانت تعتمد اعتمادا كليا على العبيد الافارقه لتعميرها و بنائها و وجد العديد من التجار ضالتهم المنشوده فى الثروه و الغنى فى تلك التجارة الرائجه و بخاصه التجار الجلابه من شمال افريقيا ، يخرجون فى حملات لاصطياد العبيد من جنوب نهر الكونغو فى جماعات مسلحه ، يصطحبون معهم عبيدهم ، يهاجمون القبائل الضعيفه المسالمه و يقتلون كل من يقاوم و اما من يستسلم يقيد بسلاسل و يقاد فى رحلات الى دارفور و السودان و منها الى مصر او الى الدول الاوربيه و امريكا فى اقفاص على سفن و بواخر ، رحلات قاسيه تعرض فيها العبيد لكل الوان العذاب حتى ان الكثير منهم كان يفضل الانتحار على حياة القهر و الذل.

عاد الصوت الاجش ينهر الفتيات و يمسك بعصا غليظه يلوح بها لتخويفهن مما نبه غوردون من شروده فالقى نظرة اخيره على الفاتنه و سمع الفتيات ينادونها "سعيدة" فابتسم من عجائب الاقدار ، الم يجد اهلها الا هذا الاسم الذى يبدو انه لن يكون لها منه نصيب فى ظل عبوديه بغيضه !!! و انطلق فى طريقه الى مكتبه الذى اتخذه لنفسه فى دارفور بعد ضمها للسودان تحت الحكم الملكى المصرى.

دخل غوردون مكتبه و قد احتقن وجهه الابيض فصار مثل قطعه الجمر من لهيب الشمس و ازدادت عيناه زرقه و جحوظا ، لم يستطع التاقلم مع حرارة السودان المرتفعة فى الصيف رغم طول بقاؤه فيه و من قبله مديريه خط الاستواء ، ارتمى على المقعد يتنفس بصعوبه و مد رجليه على منضده صغيره امامه ، اغمض عينيه يحاول ان يريحهما من لهيب الشمس و اخذته غفوة و قد اختار غوردون موقع المكتب فى وسط مدينه شكا فى طابقين ، السفلى مكتب لادارة شئون العمل و العلوى للسكن و قد تم تجهيزه و تاثيثه من احدى المحلات الشهيرة

فى مصر بالاثاث الفاخر و تم نقلهم الى السودان على متن باخره نيليه ، و اهم ما يميز الاثاث مكتب عتيق من خشب الجوز مطعم بنقوش نحاسيه على شكل فتيات صغيرات يمسكن باقه من الزهور فى ايديهن و بجانبه مكتبه تتكون من ثلاث ضلف و مطعمه ايضا بنفس النقوش النحاسيه كالتى تزين المكتب و قد وضع مقعدين من الجلد امام المكتب يتوسطهم منضده صغير ذات لون بنى متدرج غامق و فاتح تحمل نقوش على شكل وردات صغيره يصل بعضها ببعض اغصان صغيرة خضراء فاتحه اللون ، و على الرغم من ان الاثاث ذو طابع مصري الا ان الغرفه لم تخلو من اللمسه الافريقيه فانتصفت الغرفه سجاده من جلد حمار وحشى بخطوط متموجه ابيض فى اسود و تزينت الجدران بلوحات خشبيه تحمل وجوها لنساء و رجال افارقه و على الحائط فوق المكتبه ساعه تحمل راس وعل افريقى ، هذا التزاوج فى الذوق المصرى و السودانى الذى يتناسب مع طبيعه غوردون و بقائه فى مصر و السودان طويلا مما جعله ينتمى لهذان البلدان بنفس قدر انتمائه لبريطانيا بلده الام.

تنبه من غفوته حين دخل عليه المستكشف الايطالى جيسى و هو مضطرب يتلعثم فى كلامه:

"سيدى ، الم تصلك الانباء ؟"

حاول غوردون ان يبدو ممتعضا لدخول جيسى عليه دون استئذان الا ان تلعثم جيسى و اضطرابه انهيا الموقف.

"ايه انباء ؟".

اعتدل جيسى فى وقفته و ابتلع ريقه:

"الثورة يا سيدى ، سليمان ابن الزبير اقترب بثورته من بلده شكا".

تمدد غوردون فى جلسته و مد يده لابريق من الماء وضع امامه على المنضده الصغيره ، رفع الكوب ببطء الى فمه و كأنه يعطى لنفسه الفرصه للتفكير و حاول الا يبدو وجلا امام جيسى ، لم ينسى غودرون موقف جيسى منه حين كانا يعملان معا فى حكمداريه خط الاستواء و المشاكل الكثيرة التى وقعت بينهما مما اضطر جيسي إلى ان يقدم استقالته و يغادر الخرطوم ، الا انه اضطر للعوده مرة اخرى تنفيذا لاوامر القادة فى بريطانيا للعمل كنائب لغوردون بعد ضم دارفور.

قام غوردون من مكانه ، مشى ببطء يناسب التسعه و اربعون عاما الذى بلغهم منذ عده اشهر ، مسح راسه بيده و جلس على كرسى امام المكتب و دون ان يلتفت لجيسي نظر نظرة ثاقبه بعينى ثعلب انجليزى من شباك جانبى و كأنه يتذكر شيئا:

"سليمان لن يستسلم بسهوله حتى عوده ابيه".

استطرد جيسى:

"ثورة سليمان ابن الزبير ليست كسابقتها ، انها ثورة عارمه استغل فيها سليمان الشباب و عواطفهم الملتهبه تجاه الوطن و رغبتهم فى تحقيق الاستقلال لوطنهم و وضع فيها كل امكانياته من اموال و رجال ، و اخشى ان تحقق الثورة اهدافها يا سيدى الجنرال".

ابتسم غوردون ابتسامه تحمل كبرياء جنرال انجليزى:

"سليمان ليس له هدف سوى عوده ابيه و تجارته و فى هذه الحاله سيخمد هو الثورة بنفسه ، هل تظن ان سليمان يتحرك من اجل الوطن ؟ لقد قام ابوه بتسليم معظم مكتسباته فى السودان للحكومه المصريه ، عن اى وطن يتحدثون !".

رفع جيسى حاجبيه متعجبا من حديث غوردون:

"حتى لو لم يكن سليمان يثور من اجل وطنه الشباب السودانى الثائر الذى يطالب بالحريه و الاستقلال و يقاتل من اجلهما ، انهم شباب تملؤهم الحماسه و لا يهابون الموت".

قلب غوردون شفتيه ممتعضا:

"عزيزى جيسى ، هذه الشعوب البدائيه لا تدرك قيمه الحريه او حتى قيمه الحياه ، قد يتعاركون و يقتل بعضهم بعضا من اجل بقرة ، انت لا تعرفهم مثلى".

جلس غوردون على كرسيه امام المكتب و هم بالكتابه حين ساله جيسى:

"هل نطلب المساعده من مصر ؟".

وقف غوردون و هو يشير لفيروز بالورقه:

"هذا ما فعلته للتو".

اعطى لفيروز العسكرى السودانى المكلف بحمايته و القيام على شئونه تلغرافا يرسله للوالى و لانجلترا يسأل عن كيفيه التعامل مع الثورة المشتعله فى البلاد.

استاذن جيسى فى الانصراف و صعد غوردون لمنزله فى الطابق الثانى بتثاقل محدثا نفسه:

"الان عرفت لماذ تتخلف تلك الشعوب عن ركب الحضارة ، انها تلك الحرارة اللعينه التى تثقل البدن و تبلى العقل".

اتجه للحمام و بدأ يصب الماء البارد فوق رأسه.

الليل فى السودان يمر طويلا كئيبا و الوحده تزيده ارقا و سهدا بخلاف ليالى القاهرة حيث حفلات الاوبرا و السهرات التى يقيمها الوالى ،

الاغانى و الرقص و السهر حتى انبلاج الفجر ، للحياة فى القاهرة مذاق مختلف عن السودان كاختلاف الصيف ببهجته و مرحه عن الشتاء بوقاره و تحفظه و لولا وجود العسكرى فيروز و حكاويه التى لا تنتهى عن اهل السودان لكان اصاب غوردون الجنون جراء الوحدة ، معظم الوقت يجلس منصتا لفيروز يتعرف على السودان من خلاله و احيان كثيرة يتعامل معه كما يتعامل مع الجرامافون الذى يمتلكه فيتركه يتحدث و يذهب لقراءة بعض الاوراق او يدخل الحمام او حتى يخرج للشرفه و عندما يصمت فيروز يلتفت اليه مشيرا بيده ليكمل حديثه.

و فى يوم اراد غوردون نوع جديد من التسليه فحاول ان يعلم فيروز لعب الشطرنج و لكن دون جدوى فقد انشغل فيروز بالسؤال فى كل خطوة عن اسم و عمل و تاريخ حياة كل اصبع من اصابع الشطرنج فاكتفى منه غوردون بالحكاوى التى كانت تربطه باهل السودان بطريقه غير مباشرة ، فلان ماتت جاموسته و فلان زوجته وضعت مولود ، فلانه ضربت ضرتها بالقبقاب ، علانه عملت سحر لزوجها ، و هكذا كانت الليالى تمر على غوردون ثقيله.

حتى اليوم الذى رأى فيه تلك الفتاة السمراء "سعيدة".

كم كانت تشع فتنه و دلال ايقظت فى غوردون احاسيس كان قد تناساها من زمن فات ، منذ الخطاب الاخير لمارلا.

"عزيزى غوردون ، اكتب اليك خطابى الذى سيكون الاخير ، قفد قررت قطع علاقتنا و الزواج برجل يمدنى بالدفء فى الليالى الباردة و كم كانت كثيرة تلك الليالى فى غيابك و لكن آن الاوان ان اتخذ قرارا نهائيا بصدد علاقتنا ، العمر قطار يرحل يا غوردون و يرحل معه الشباب و الامانى و اليوم امنيتى الوحيده ان الحق بقطار الامومه قبل ان يفوتنى و اقف وحيده فى زحام الحياة و انا اعلم انك لن تستطيع ان

تحقق لى هذه الامنيه ، اعذرنى انا لا اقصد الاساءة بقدر ما اقرر واقع عشناه سويا لسنوات طوال ، تمن لى الحظ الطيب و اقبل اعتذارى".

كان هذا الخطاب بمثابه القنبله التى انفجرت فى رجولته و قطعت كل صله بينه و بين النساء حتى ان اصدقاءه قد بدأوا يشكون فى اخلاقياته هو الرجل المتدين و يتندر السودانيون من علاقته الغريبه بالعسكرى فيروز و الليالى التى يقضونها سويا و ارتباطه الدائم به حتى انه كان يصطحبه معه فى سفرياته الى بريطانيا.

لم تجدى المحاولات الزائفه من قبل غوردون لاسترضاء سليمان ابن الزبير و فى النهايه تم استدراج سليمان بحيله من غوردون بعد ان اوعز اليه بانه يرغب فى الصلح و تسويه الامور بناءا على خطاب من الزبير و تم التخلص منه ، ليله موحشه و كئيبه قضاها اهل السودان بعد معارك كبيرة خاضها الانجليز لتعقب الثوار و قتلهم و التنكيل بهم ، كانت امال الشباب السودانى فى تحرير ارضه من الحكم الانجليزى كبيرة و قد استبسلوا فى المعارك و اظهروا شجاعة و وطنيه ليس لها حدود الا ان الهزيمه لحقت بهم نتيجه لقله العدد و الاسلحه و كان لقتل سليمان ابن الزبير صدى واسع فى السودان و تعاقب الثورات.

،و

" سراي عابدين ـ القاهرة "

قبل ثلاثه اشهر كان الزبير فى طريقه للقاهرة و قد القت شمس يوليو باشعتها القاسيه و حرارتها الداميه على الباخرة النيلية التى استقلها فى الرحله الطويله التى اجتاز بها نهر النيل من الخرطوم للقاهرة فى ثلاثه ايام.

و لم يخفف من شدة و قسوة الرحله عليه سوى نهر النيل بمياهه اللامعه و اندفاعه و تدفقه فى بدايه الرحله كشاب فى ربيع العمر يهوى المغامرة و الخطر فيشق الصخور و يقفز من المرتفعات و ينحدر بحريه و انطلاق دون ادنى حذر حتى اذا اوشكت الرحله على نهايتها فى الجيزة بدت عليه علامات المشيب فينساب بهدوء و سكينه محافظا على وقاره.

انه النجاشى الذى عقد معه الزبير صداقه دامت اربعون عاما فاودعه كل اسراره دون الخوف من البوح او الافشاء ، ذلك النهر العظيم بامتداده من المنبع عند بحيرة فكتوريا فيما يعرف بالنيل الابيض ثم التقاؤه بالرافد الذى يعرف بالنيل الازرق الذى ينبع من المرتفعات الاثيوبيه فيتعانقا فى الخرطوم و يكملا المسيرة الى مصر اكبر دليل على ان الله اراد للبلدين نفس المصير عندما وهبهم ذلك الشريان العظيم ، لا يمكن ان يكون الله خلق مصر و السودان بلدين منفصلتين ، لو اراد لهم ذلك كيف يربط مصيرهم بشريان واحد للحياه ، إن دعاوى الانفصال التى تنتشر تلك الايام ما هى الا محاولات من الاعداء الذين ينفثون فى نار الفتنة لتفتيت البلدين و انهاك قواهم حتى يسهل السيطرة عليهم.

كان الزبير يتسلى بتلك الافكار حين شقت الباخرة النهر بحنان ام تهدهد طفلها محدثه ذلك الصوت المحبب للزبير و الذى يذكره بصوت حبيبته

و زوجته الجميله "رانبو" حين كانت تدندن فى اذنيه باعذب الاغانى الافريقيه فتزيد عاطفته حرارة و لهيبا لا يضاهيه الا لهيب شمس يوليو ، اجتاحت الذكريات عقله و قلبه و هو يتذكر اربعون عاما مضت قبل ان يقابل ابو عمورى التاجر المصرى الاسوانى ، لم يكن سوى فتى سودانى قضى طفولته فى الكتاب يحفظ القرأن و يلعب فى ليالى الصيف الحارة الطويله ، طفولة سعيدة و ابتسامة لا تفارق وجهه و ام حنون حتى بدا يشب و يدرك ان الحياه بها الكثير من المخاطر و الاطماع و انه لابد لخوضها من قلب لا يهاب شيئا و نفسا صبورة على المكاره و باتت له تطلعاته و آماله فى الثراء و السلطه و كان لقائه بتاجر الرقيق المصرى الاسوانى هو الجسر الذى مر عليه لحياته الجديدة فاصطحبه معه ابو عمورى فى رحلات لاصطياد العبيد و بسرعه اكتسب ثقته حتى اصبح من المقربين له.

توطدت علاقته بابو عمورى و استحوذ على ثقته لما له من شخصيه شجاعة و قدرة على المراوغه و بدات تتحقق احلامه فى الثراء و خصوصا بعد زواجه من "رانبو" ابنة السلطان "تيكما" ، تلك الاميرة الافريقيه ذات الحسن و الجمال ، لا يزال اللقاء الاول بينهما محفورا فى ذهنه ، كان ذلك فى احدى رحلاته لاصطياد العبيد من تلك المنطقه التى تسكنها قبائل النيام نيام رأها للوهله الاولى خطفت لبه بجمالها و هام بها وجدا ، لم يستطع الا ان يعقد مع اهلها صلحا و يتنازل عن مكتسباته من الرجال و النساء التى تم اسرهم فى مقابل تزويجه من تلك الحسناء و التى اكتشف انها ابنه سلطان البلاد و لم تكن تلك الزيجه الاولى للزبير فقد تزوج قبلها احدى عشر مرة و له العديد من البنات و الصبيان الا ان هذا الزواج يحمل نكهه مختلفه امتزج فيه الحب بالتجارة ففتح له الباب على مصراعيه امام تجاره العاج و الرقيق فتنامت ثروته و زاد نفوذه

بعد ارتباطه مع الخديوى اسماعيل فى مصر بالعديد من صفقات توريد العبيد و تجنيدهم فى الجيش.

قام بتجهيز الجيوش و اعلان الحرب على سلطان دارفور لرغبة خديوى مصر اسماعيل بضمها الى المملكه المصريه مع وعد بتسليمها للزبير لادارة شئونها و تأمين تجارته فارسل اليه الجيوش المصريه لمساندته فى معاركه ضد سلطان دارفور و دارت معركه كبيرة قتل بها السلطان و المئات من امراء دارفور و اعيانها و مشايخها الذين رفعوا رايه العصيان ضد الحكم المصرى فقتلوا فى تلك المعارك و كان النصر حليف الزبير الذي دخل دارفور و احتلها بالكامل و تمت سيطرة القوات المصريه عليها و رغم تأكيد الزبير ولائه الدائم للحكومه المصريه و اجتهاده فى ضم مديريه بحر الغزال و دارفور الا ان حكمدار الخرطوم فى ذلك الوقت و نتيجه للوضع الاقتصادى المهترىء فى مصر فقد فرض الضرائب الباهظه على الاهالى و التجار مما كان من اهم الاسباب للخلاف بين الزبير و الحكمدار.

فشلت كل محاولات الزبير لاسترضاء الحكمدار و لتهدئه الاهالى و بالاخص بعد ان قام غوردون الحاكم الانجليزى فى السودان باحتكار التجارة مما ادى لتأزم الوضع هناك و قيام العديد من الثورات على هذا الوضع المجحف فاضطر الزبير إلى القيام بتلك الرحله ليقدم فروض الولاء و الطاعه للخديوى اسماعيل و ليشكو اليه تعنت حكمدار السودان معه.

ثلاثه ليالى تمخر الباخرة النيليه عباب الماء حتى دخلت الى الاراضى المصريه حيث بلده ابو سمبل جنوب اسوان ، وقف معبد ابو سمبل شامخا بتماثيله الاربعه التى نحتت كلها من الصخور لرمسيس الثانى و هو يجلس على العرش يرتدى التاج المزدوج لحكم الوجهين البحرى و القبلى ، تعجب الزبير من بقاء تلك التماثيل الضخمه عبر االسنون فى

تحدى واضح للزمن ، المعابد تنطق بالعظمه و الخلود و لطالما سأل نفسه لماذا تسيطر دائما على الانسان فكرة الخلود فيبنى معبد او هرم او ينقش على الحجر ؟ الم تكن فكرة الخلود بالاساس فكرة شيطانيه ابتدعها الشيطان ليخرج ابونا ادم من الجنه ؟ الم يخرج ابونا ادم من الجنه عقابا له على الاكل من شجرة الخلد ؟ هل بعد الموت يجدى الخلود ؟ لماذا لم يخلد الانبياء انفسهم حتى ان قبورهم غير معلوم مكانها ؟ جمعت شخصيه الزبير العديد من المتناقضات بين الرجل الطموح العسكرى تاجر العبيد الذى يسعى وراء النفوذ و السلطه و الثروة و بين نشأته الدينيه فى الكتاب و حفظه القران الكريم منذ نعومه اظافره ، احيانا ما تطغى عليه نشاته الدينيه و تسيطر على افكاره و معتقداته كلما مر على تلك التماثيل يتسائل اين هم اصحاب هذه العواميد الشاهقه و التماثيل الضخمه ؟ امم و ملوك و تحصينات و حروب و النهايه حفنه من التراب.

ابتسم الزبير و هو يرى النسوة الصعيديات يحملن الجرار و يغسلن اوانيهن ، الاطفال بسمرتهم المحببه يسبحون فى النهر و فلاحون يسقون و يحممون البهائم ، البيوت بالطوب النى و شبابيك زرقاء و الاسقف من الخوص و قش الارز ، انه منظر لا يختلف عما يراه فى السودان.

اخيرا وصلت الباخرة الى مستقرها بالقرب من مدينه الجيزه ، بسطت الاهرامات نفوذها على مدخل المدينه بكبرياء سبعه الاف عاما و قد انخفضت الحرارة بشكل ملحوظ عن بدايه الرحله ، ارتدى الزبير زى الفرسان الرسمى ، البنطال الاسود و جاكيت موشى على الصدر بخيوط ذهبيه و الطربوش العثمانى ، اهتم ان تكون الهدايا التى اصطحبها لخديوى مصر من افخم انواع العاج و المشغولات الذهبيه و بضعه اجوله من ريش النعام لصناعه الوسائد و المراتب و التى كانت

تفضلها زوجاته لنعومتها و خفتها و اجوله للتوابل السودانيه و بخاصه الشطه السودانى و جاريتان فى مقتبل العمر للخدمه فى القصور و بعض الفتيان ممن لديهم خبرة فى الزراعه للمساعده فى الاهتمام و تنسيق حدائق القصور الملكيه.

قاربت الساعه السابعه مساءاً حين وصل الى سراى عابدين ، تم تسليم الهدايا و الانتظار فى المكان المخصص للضيوف ، اشار اليه الخادم بالجلوس قائلا باللهجه السودانيه المصريه:

"جناب الوالى اطال الله عمره ذهب لمشاهده الاوبرا ، سيادتكم انتظر حتى عودته"

انتصف الليل و سمع الزبير موكب الخديوى يقترب من السرايا ، اعتدل واقفا يرتب هندامه و يلبس طربوشه و قد اقترب من المرآة التى تتوسط الحائط يطمئن على حسن مظهره ، نظر لبرهه باعجاب محدثا نفسه بصوت خفيض.

"و الله بيك صحيح ، لا بيك ايه ، سلطاااااااااان.

اقترب صوت خطوات الخديوى اسماعيل و حاشيته و قد علت دقات قلب الزبير فقد كان يعرف ان اسماعيل فى حاله مزاجيه سيئه بعد افتتاح قناة السويس و الحفله التى كلفته الكثير من الديون المرهقه له و لمصر و رغم محاوله الوالى تعويض الديون ببيع اسهم القناة و فرض ضرائب على مصر و السودان الا ان ذلك لم يمنع الاستانه من ان تعلن استنكارها لسياسته فى الاستدانه و تذمر اصحاب الديون مما كان له الاثر الكبير على طموحاته بتحويل مصر لقطعه من اوروبا ، و رغم ولاء الزبير للخديوى و للمملكه المصريه و ثقته فى وطنيه اسماعيل الا انه كان على يقين بانه رغما عنه مكبل اليدين و لن يستطيع مناطحه الاجانب و التصدى لسياساتهم فى السودان.

انحنى الزبير للوالى تحيه اجلال و احترام و ظل واقفا حتى اشار اليه الخديوي بالجلوس ، جلس على طرف الكرسى مركزا انتباهه على انهاء مهمته بنجاح ، لم يكن يعرف من اين يبدأ ، طال صمته حتى باغته اسماعيل بنفاذ صبر بسؤال يعلم اجابته:

"فيه ايه يا زبير بيك ؟ ماذا حدث فى السودان حتى تأتى هنا ؟".

رد الزبير بصوت يملؤه الاسى:

"يا جناب الخديوى ، انا جاى اشكيلك اسماعيل باشا ايوب حكمدار السودان فرض الضرائب التى قصمت وسطنا فى السودان و لم يكتف بذلك بل احتكر التجارة هو و الانجليزى غوردون ، الناس و التجار ضجوا هناك يا مولانا ، جيت لجنابك تشوف لنا حل و عشمنا فيك كبير".

رد اسماعيل متضجرا من شكوى الزبير:

"و لكن لماذا تأت الى هنا زبير ، لماذا لم تحاول علاج مشاكلك هناك فى سودان ، انت تعرف انه منذ وفاه العبيد فى حفر القناة و اوروبا تتصيد لنا الاخطاء".

تعجب الزبير من رد الوالى !

"و لكن يا مولاي ما لى انا بموت الناس فى حفر القناة".

رد الوالى و قد بدا عليه نفاذ الصبر.

"مالك كيف يا زبير ! انت اكبر تاجر للرقيق فى سودان وجودك هنا قد يسبب مشاكل".

حاول الزبير استدرار عطف الوالى اسماعيل:

"و لكن يا جناب الوالى انا رجلكم فى السودان منذ عشرون عاما قد وضعت اموالى و رجالى فى خدمتكم و انتظر ان تقفوا بجانبى تعطفا و اجلالا".

رد الوالى و قد بدأت لهجته تلين و يخفض صوته:

"زبير ، انت خدمتنا كثيرا و اخذت ثمن كبير لخدماتك ، نحن نشكرك على هذه الخدمات و لكن ما هو المطلوب منى الان ؟ ان اتفرغ لحل مشاكل صغيره كان يمكن ان تحلها انت هناك فى السودان ! انت تعرف ان الوضع الان ليس كالسابق و علاقتنا بالاستانه متوترة و الانجليز يدسون انفهم فى كل شىء ، ارى ان تحاول تهدئه الوضع فى سودان مع حاكم انجليزى ، ارى ان هذا فى مصلحتك و مصلحه سودان".

تثائب اسماعيل فى تململ متظاهرا بالرغبه فى النوم:

"نتحدث غدا زبير ، انا متعب الان".

انحنى الزبير لتحيه الوالى.

"امر جنابك يا مولانا ، استأذن سيادتكم اذهب الى قصرى فى القللى و اعود فى الصباح الباكر".

رد اسماعيل بلا اكتراث:

"و لماذا القللى ؟ استرح فى مكان الضيوف حتى الصباح ثم توجه للسودان مباشرة"

اقتاده الخادم لمكان النوم ، جال ببصره فى الغرفه الواسعه بنقوشها الذهبيه على السقف و الحوائط ، سرير عريض يتوسط الغرفه ارتمى فوقه الزبير ، نظر امامه للمرآة السويسريه الكبيرة باطارها المذهب يصارع افكاره و هواجسه ، عشرون عاما قضاها فى خدمه السرايا و خدمه المملكه المصريه يظن انه يخدم وطنه السودان ، كان له الفضل

الاكبر فى ضم اجزاء كبيره من السودان لمصر ، تكبد الكثير من التضحيات كلفته المال و الرجال ، تحمل الاتهامات بالخيانه و بيع قضيه السودان و لكن كل هذا لم يفت من عضده ، كان يعلم تمام العلم ان قوة السودان كونها تابع لمصر ، جزء من المملكه المصريه ، هو يدرك حجم الاخطار التى تحيق بالسودان حال انفصاله عن مصر و يرى الاطماع فى عيون الخواجات لثروات بلده ، لابد للسودان من وجود ظهير قوى يسانده ، شريك يهابه كل من تسول له نفسه الانقضاض على الوطن و العبث بمصيره ، لذلك كان يستبسل فى حروبه ضد كل دعاوى الانتفاض ضد الحكم المصرى ، تلك كانت قناعاته حتى بدأ الخديوى فى تمكين الانجليز من السياده على السودان فاحتكروا التجارة و فرضوا الضرائب حتى اصبحت لهم الكلمه العليا فى السودان هم و تابعيهم.

تقلب الزبير فى فراشه الوثير يحاول استعطاف النوم الذى بدا قاسيا جافيا ، انتفض جالسا على السرير اشعث الشعر و عيناه جاحظتان حمروان من كثرة السهر و بدا يتمتم بصوت خفيض:

"لقد اخطأت يا زبير بقدومك و تقديم شكوتك ، انت تعلم انه لن يستطيع مواجهه الحاكم الانجليزى او اتخاذ موقف يوتر علاقته بالانجليز ، ما الذى فعلته بنفسك يا زبير؟".

و لم يكن حال اسماعيل افضل من حال الزبير فقد جافاه النوم هو الاخر و ظل مستلقيا على السرير معلقا بصره بسقف الغرفه يحاول التلهى بمتابعه النقوش على السقف ورود و حوريات نقشت بفن و الوان بديعه و لكنها لم تستطع طرد الافكار السيئه من رأسه ، تدافعت الافكار الواحده تلو الاخرى ، حفر قناة السويس ، ذلك الحلم الذى تحول الى كابوس ، الظروف السيئه التى شقت فيها ، القناة ، رائحه الموت التى ازكمت الانوف هناك ، وفاة عشرون الف عامل مصرى جوعا و

عطشا و بعد ان انتشار الامراض و الاوبئه بينهم حتى ان بعض الصحف الاجنبيه نشرت خبر وفاه المصريين فى حفر القناة و اشارت باصابع الاتهام الى اسماعيل الذى لم يهتم بحياة المصريين و لم يوفر لهم البيئه الملائمه لمثل هذا العمل الشاق فماتوا جوعا و عطشا.

حالة الغليان تسود الشارع المصرى ، اكتظت السجون بالمتمردين و الثوار و بالرغم من ان حفله الافتتاح الاسطوريه حضرها ملوك و امراء الشرق و الغرب و رغم التكاليف الباهظه التى كلفته اياها حتى بلغت حوالى مليون جنيها ذهبيا مما ارهق كاهل المملكه المصريه بديون كبيرة عجزت ميزانيه الدوله عن تحملها كانت تلك الحوادث تقلص فرحته بذلك الانجاز الضخم الذى طالما حلم به ، استدار اسماعيل للجهه الاخرى ، وضع يده تحت رأسه و هو يبتسم حين تذكر جنوح السفينه المصريه فى القناه قبل يوم من الاحتفال و لم يكن هناك وقت لتحريكها او انتشالها فاعطى اوامره بنسفها ، كم كانت اوجينى ساذجه حين ظنت ان نيران السفينه التى ظلت مشتعله لايام هى تحيه لها تنهد بحسرة و هو يتذكر كم من الاموال انفق لاسترضاء تلك الامبراطورة الساحرة حتى انه اقام قصر الجزيرة لتقيم فيه خلال احتفالات القناة ، ذلك القصر الذى كلفه ثلاثه ارباع مليون جنيه مصرى.

"عينى على الاقل ستظل معجبة بك الى الابد".

ردد اسماعيل لنفسه تلك العبارة التى نقشت على غرفه النوم الذهبيه التى اهداها لاوجينى عند سفرها بعد حفلة افتتاح القناة ، لم يستطع اسماعيل نسيان قصه الحب التى ربطت بين الشاب سليل الملوك الذى ذهب لنيل تعليمه فى فرنسا و الفتاة الفرنسيه الطموح اوجينى ، تلك القصه التى لم يكتب لها ان تكتمل و التى لم يذق بعدها طعم الحب او السعادة ، تقلب فى فراشه يعانى الارق الذى صاحبه منذ فترة ليست

قليله و تذكر عرش مصر الذى آل اليه بالصدفه بعد وفاه اخيه الاكبر فى حادث قطار ، كان الحادث يبدو مدبرا و لكن فرحته بتولى حكم مصر جعلته لا يفكر فى التحقق من كيفيه وقوعه و خاصه ان سقوط القطار فى النيل اخفى معه السر بعد غرق كل من فيه تذكر سعيد باشا ابوه الذى توفى تاركا له تركه من الديون ، هل يملك هو عصا سحريه لسداد تلك الديون ؟ قضى اسماعيل معظم شبابه خارج مصر فاكتسب من الاجانب حب الجمال و النظافه و الفن و رغم تعليمه فى الخارج و جيناته التركيه الا انه كان عاشقا لتراب وطنه و بحكم نشأته و اختلاطه الدائم بالاوروبيين تمنى ان تكون فى مصر نهضه حقيقيه و يتسائل دائما ، ماذا كانت تملك اوروبا حين قامت بنهضتها ؟

انها الاراده فقط هى التى صنعت نهضه اوروبا ، نبعت ارادته للنهوض بمصر من حب حقيقى للوطن و لكن الظروف التى تولى فيها حكم مصر هى التى عصفت باحلامه و لم تمكنه من تحقيق نهضه مماثله فى بلاده مثلما كان يتمنى ، اغمض جفنيه متمتما:

"لا ينقصنى الا انت و مشاكلك يا زبير"

،،

" أم درمان - السودان "

تأهبت القافله للتحرك بعد ان هدات الاوضاع قليلا فى السودان اما غوردون فقد ابدى ارتياحه بعد التخلص من عدوه اللدود و قد كانت كراهيته شديده للزبير و ابنه بصفتهم من اكبر تجار الرقيق فى افريقيا و اصحاب نفوذ واسع على السودان و التخلص منهم يعنى بسط سيطرته بدون اى معارضه او مشاكسات.

بدأ فى تفقد القوافل المتجهه لمصر و منها تلك القافله التى يرأسها الشيخ قاسم المحمله بالتوابل و ريش النعام و العاج و الحلى السودانيه و السلال و التى تضم تاجر العبيد و الفتيات الخمسه و تتوجه لعده مدن سودانيه اخرى لانضمام باقى التجار اليها قبل عبورها درب الاربعين ، شعور غامض جذبه للفتاة سعيده جعله لاول مرة منذ قدومه للسودان يصدر امره للعسكرى فيروز بان يذهب و ياتيه بالفتاة ، رغبه جامحه تملكته و جعلته يتخلى عن ورعه و وقاره ربما ليختبر رجولته مرة اخيرة الامر الذى اثار استياء فيروز و غضبه.

نزل فيروز و هو محتقن الوجهه يملؤه الغيظ الذى لا يعرف سببه الحقيقى ، هل هو الغيرة على فتاه افريقيه قد تباع بعد يوم او اثنين فى سوق الجوارى ؟ ام هى الغيرة على ذلك السيد الانجليزى الذى لم يعرف عنه سوى العفه و البعد عن المجون و اللهو طوال فترة خدمته الطويله معه ؟

صعد فيروز يصطحب سعيده و تاجر الرقيق التى لمعت اسنانه البيضاء من بين شفتيه الداكنتين يظن ان غوردون قرر شراء الفتاة او ربما اراد اللهو لبعض الوقت و ربما يمنحه مبلغاً ليس بقليل مقابل ليلة مع الفتاة قبل تحرك القافله ، وضع غوردون مبلغا زهيدا من المال بين يدى التاجر الذى اصيب بخيبه امل ، امره غوردون بالتحرك فانسحب

ببطء استفز غوردون و ضغط على اعصابه ، اغلق الباب وراءه ، وقفت سعيده فى مواجهه غوردون تتعجب من رجل ابيض تجاوز الشباب بزمن يفكر باللحاق بركب سبعه عشر ربيعا ، حاول غوردون و قد لعبت الخمر بعقله و لكنه لم يستطيع , عجز عن اتيان الفتاه فانهال علىها ضربا و ركلا.

لم يكن يركل الا عجزه و ضعفه ، تذكراصابته قبل عشر سنوات و التى اثرت على قدرته و فحولته ، امتلأت عيناه بالدموع حين تخيل مارلا تطارده بابتسامه شامته على جدران الغرفه و على السقف و على خصر سعيده ، بكى كطفل صغير بين احضان سعيدة.

فى الصباح كان يشعر بصداع و ثقل فى راسه و حين بدأ يتذكر ماحدث منه البارحه شعر بالعار و الخزى من تصرفه كيف يصدر منه هذا التصرف الغير لائق و هو من كان ينصب نفسه مندوب العداله السماويه فى الارض ؟ خاض حروبا كبيرة ضد تجار الرقيق و كان يقسو عليهم و يصدر احكام قد تصل لحد الاعدام فيمن يثبت تورطه فى تجارة الرقيق.

انطلق النفير و تاهبت القافله للتحرك ، وقف غوردون بعيدا ينظر لسعيدة و هى تقف باسقه تحمل عراقه القارة الافريقيه بين كتفيها ، استوقفها و مد يده بسلسله ذهبيه تحمل صليبا رفيعا عليه السيد المسيح مصلوبا ، مدت يدها تاخذ السلسلة و كادت تبكى ، فترة طويله مرت قبل ان يهبها احد هديه منذ تركت بلادها فى تلك الليله السوداء ، لا تعرف لماذا تذكرت جدها تلك اللحظه ، ابتسمت لغوردون فقد كانت نظرة الندم فى عينيه كفيله بان تمحو ذنبه فى تلك الليله وضعت السلسله حول جيدها و انطلقت مع القافله فى اتجاه ام درمان.

فى ام درمان ، تلك المدينه الكبيرة المضيئه التى تفتح ذراعيها للزائرين و التجار بحوانيتهم المتراصه بجوار بعضها البعض ، تجار الحلى و التوابل و ريش النعام و العاج ، يتعايش فيها المسلم مع اليهودى مع المسيحى فى تناغم ليس له مثيل ، يشعر كل منهم بجوار صاحبه بالامان.

يقولون ان المدينه سميت ام درمان نسبه لامرأة سليله ملوك سكنت قصرا كبيرا هناك و كان يحتمى بقصرها كل باحث عن الامان فسميت ام دار الامان و تم تحريف الاسم بعد ذلك لام درمان ، اسواقها الكبيرة لا تتوقف بها حركه البيع و الشراء ليل نهار و لذلك كانت تمثل قوة تجاريه.

تاهب التجار فى ام درمان للانضمام للقافله ، سمعان تاجر الحلى اليهودى يروح و يجيىء هنا و هناك بين عبيده للاطمئنان على تجارته التى قرر فجأة ان ينقل نشاطها لمصر بعد الحاح زوجته المصريه التى كرهت حياة السودان و تاقت نفسها للعودة الى مصر حيث مباهج الحياة و لم تكن كاتيا زوجه سمعان تقصد الا ان تبعده عن ابنته الوحيدة دليله التى انجبها من جاريته الارمنيه و التى ورثت عن امها الجمال و الرقه فكانت كملاك فى هيئه فتاه مما كان يثير غيرة كاتيا و حقدها و لكن خاب املها حين اخبرها سمعان انه لن يستطيع ترك ابنته و لابد من اصطحابها معهم.

لم يكن يخفى سمعان عن زوجته و ابنته شيئا حتى ادق اسرار صفقاته و امواله الا انه هذه المرة استطاع ان يخفى السر الحقيقى وراء موافقته اخيرا على النزوح لمصر فقد سمع من تجار يهود قادمين من فلسطين بان هناك محاولات من الدول الاوربيه لبناء وطن قومى لليهود و لم شملهم فى فلسطين و رغم ان الخليفه عبد الحميد الثانى اعلن رفضه المطلق لتلك الافكار و المحاولات الا ان هناك حركه سريه لنزوح

اليهود لهناك ففكر ربما تسنح له الفرصه ان يكون من المهاجرين للوطن الموعود و فى الارض الجديده تزدهر تجارته و يزوج ابنته و يعيش بين اقرانه اليهود يقيم شعائر دينه بحريه اكبر و يحقق نبؤة التوراه فى وطن يمتد من النيل للفرات.

كان سمعان يهودى متدين و علاقته بمن حوله من المسيحين و المسلمين علاقه عمل و جيرة طيبة و بخاصه تاجر الغلال برهان و زوجته السيده سكينه التى كان لها الفضل فى تربيه ابنته بعد وفاه امها و عمرها لم يتعدى ثلاثه اعوام فاحتضنتها سكينه و اولتها رعايتها و منحتها كل حب و حنان يتناسب مع طبيعتها السودانيه الطيبه و بينما كان سمعان يقفز هنا و هناك بجسده النحيل و عبائته المصريه يتفقد الاحوال سمع صوت كاتيا و دليله يتشاجران كعادتهما و كانت كل منهما ترتب مستلزمات السفر حتى نشب الشجار بسبب مشط عاجى مرصع باللؤلؤ كل منهم تدعى ملكيته حتى بدأ الامر يصل للتشابك بالايدى حين تدخلت السيدة سكينه بصوتها الهادىء متناسيه كالعادة انهم يهود:

"صلوا ع النبى يا ستات ، لا يصح يا دليله ، اعقلى يا كاتيا".

التقارب فى السن بين كاتيا و دليله كان يمنحهما حق الاختلاف و التشاجر و التراشق بالالفاظ حتى تتدخل السيدة سكينه كل مرة بعقلانيتها و حكمتها فتنهى الخلاف ، لم تكن كاتيا ترغب فى الزواج من سمعان الذى يكبرها بحوالى ثلاثون عاما ، كان فى نظرها رجلا عجوزا يريد ان يجدد شبابه مع فتاة صغيرة من عمر ابنته و لكن ظروف اسرتها الماديه التى انهارت بعد ان فقد ابوها كل ثروته ما دفعتها للموافقه على هذه الزيجة ، كانت تضحيتها من اجل اسرتها تضغط على نفسيتها و تلهب اعصابها كلما عاشرها سمعان و بخاصه انها فشلت فى انجاب طفل و يبدو انها لن تستطيع فقدرة سمعان كانت محدوده للغايه و فشلت كل محاولاتها فى دفعه للعلاج بل كان ينفعل و

قد يمد يده و يضربها كلما فاتحته فى هذا الموضوع حتى استسلم اخيرا و قرر الذهاب لمصر طلبا للعلاج.

انهت سكينه مهمتها بنجاح ، فضت الاشتباك بين دليله و كاتيا و انهت الصراع بفوز كاتيا كالعادة ، توجهت لدارها لترتيب لوازم السفر ، قالت سكينة و هى تحدث زوجها باستعطاف حتى يغير رأيه فى اصطحابها:

"هل لابد من اصطحابى معك يا برهان ؟ انا كبرت و لم اعد اتحمل مشقه السفر"

الا ان برهان لم يكن يتنازل عن وجود سكينه معه فى رحله من رحلاته ، وضع يديه على كتف زوجته و شريكه حياته بحنان كمن يريد التأثير على قرارها و يقنعها بالسفر:

"حبيبتى سكينه ، طول عمرى اتفائل بوجودك معى و لا اتصور تربح لى تجارة و انا وحدى".

سته و ثلاثون عاما بحلوها و مرها قضاها برهان و زوجته سكينه تصحبه فى كل رحلاته ، انجبا الابناء و تحملا كل صعاب الحياة لتربيتهم ، خسائر كبيرة منيت بها تجارته و لكنه استطاع النهوض بها من جديد ، تحملا مرارة فراق احد الابناء سويا و تمتعوا برؤيه الاحفاد سويا ، قال برهان بحنان:

"لن يهنألى بال او يغمض لى جفن الا وانتى بجوارى يا سكينه ، لقد كبرت فى السن و اصبحت كطفل يتعلق بذيل امه لا استطيع ان اكل الا من يديك ، ايرضيك ابقى اربعين يوما بلا نوم و لاطعام ؟".

ابتسمت و هى تضع لوازم السفر:

"لا يا برهان لا يرضينى ، امهلنى ساعه و اكون مستعدة".

تحاملت سكينه تلك السيده السودانيه البدينه ذات الخمسون عاما على نفسها كعادتها لارضاء برهان رغم شعورها بان هذه الرحله ستكون صعبه مليئه بالمشاق الا انها آثرت الا تعكر صفو زوجها و بخاصه انه وضع امالا عريضه على هذه الصفقه و قد اخبرها انه ربما تكون هذه اخر رحله يقوم بها و ان فى نيته تسليم الدكان و التجارة لاحد الابناء و يكون له الاشراف و الادارة فقط ، ارتدت التوب السودانى المطرز و قد خضبت يديها و قدميها بالحناء السودانيه و وضعت الكحل الحار فى عينيها.

بدا العبيد فى وضع الحاجيات الخاصه بها فى الهودج حين وقع نظر برهان عليها ، تذكر فى ثوانى حياته الطويله الهانئه معها ، ابتسم و هو يغمز بعينه:

"جميله دائما يا ام عثمان ، فكرتينى بالذى مضى يا زول".

ابتسمت سكينه ابتسامه تحمل طيبه الشعب السودانى و وضعت يده فى يدها ليساعدها على ركوب الهودج ، اطمئن الريس قاسم لاستعداد الجميع للرحيل فاصدر الامر بالتحرك نحو دنقلا.

و،

" بلـجيـــكا "

لم يمنع تساقط الثلوج فى الميدان البلجيكى من ازدحامه بالجماهير التى اتت من كل مكان لسماع خطبه الملك ليوبولد الذى الهبت كلماته حماس الجماهير فتعالت الصيحات بين الحين و الاخر:

"يحيا الملك ليوبولد العظيم ، يحيا الملك ليوبولد محرر العبيد".

اندفع ليوبولد ملك بلجيكا فى خطبه حماسيه قائلا:

"ان انسانيتنا تقتضى ان ننتشلهم من براثن الوحشيه و الهمجيه و ننير دروبهم بشمس حضارتنا و تقدمنا ، لابد ان تمتد ايدينا لكل المستضعفين فى الارض ، و من افريقيا سنبدأ".

استطرد ليوبولد بكلماته الحماسيه التى اشعلت عاطفه الشعب البلجيكى تجاه الافارقه المقهورين:

"افريقيا ، تلك البقعه المظلمه من الارض التى اجتاحتها البربريه و الوحشيه ، سنقضى على تجارة العبيد و ننشر الدين المسيحى و نهديهم الحضارة و الرقى و الانسانيه".

انفجر الميدان بالهتافات:

"يحيا الملك ليوبولد ، يحيا محرر العبيد".

بعد انتهاء الخطبه بدا الميدان الخالى و قد اكتسى بالثلوج كبساط ابيض ، انهمك العمال فى ازاحه الثلوج عن الشوارع لتسهيل حركه مرور العربات و وقف مارك و هيلينا بجوار احدى صناديق القمامه يتهامسان و قد امسك مارك بزجاجه الخمر فى يده يرتشف منها قائلا:

"يسقط ليوبولد محرر العبيد ، يسقط راعى القرده".

مدت هيلينا يدها تنتزع شيئا من صندوق القمامه و قد وقف بجوارها ثلاثه من الاطفال الشاحبين تلطخت وجوههم بالقذارة و بدوا كانهم فارين من بين سطور روايه عن الشقاء بملابسهم الرثه و وجوههم الشاحبه ، اعطتهم هيلينا بقايا خبز و لحم حصلت عليهم من بين قمامه الاغنياء ، وقفوا يلتهمونها بنهم جوعى لم يتذوقوا طعاما منذ ايام ، حاول مارك ان ينتزع من احدهم قطعة من اللحم حين اندفعت هيلينا تخطفها من يده قائلة:

"فلتبحث انت عن عشاءك ايها السكير".

ارتشف مارك رشفه من الزجاجه التى فى يده و التى يبدو انها اصبحت فارغه فالقى بها على الطريق و هو يصيح:

"ليوبولد ، ايها الملك العظيم ، اتترك شعبك جائع من اجل القرده ؟".

"هل حقا ملكنا سيذهب لترويض القرده يا مارك ؟".

كانت هيلينا تسأل مارك باعتباره اكثر شخص مثقف تعرفه بين المتسولين و المشردين.

اجاب مارك قد اخذ الشراب برأسه:

"نعم هيلينا ، و يخبرهم بتعاليم الرب ، و بدلا من ان يكونوا وحوشا يأكلون بعضهم البعض سيصبحون وحوشا تذهب الى الكنيسه ، اتدرين ؟ قد يعلمهم الرقص ايضا".

امسك بيديها و بدأ فى الرقص و قد انفرجت اساريرها عن اسنان صفراء و جحظت عيناها.

"واحد ، اثنان ، ارأيتى ايتها القردة الحسناء ؟ الرقص امر بسيط".

اطلقت هيلينا ضحكه مريرة تشبه البكاء و هى تنظر لاطفالها الجوعى و بدا صوتها مرتعشا و هى تهتف:

"يسقط ليوبولد العظيم ، يسقط مروض الوحوش"

وقف الحارس على الباب يعلن قدوم الملك ليوبولد الى الحفله التى اقامها السير ستانلى على شرفه احتفالا بالاتفاق على تكوين الرابطه البلجيكيه لنشر الحضارة فى الكونغو و قد حاول ستانلى من قبل مع الحكومه الانجليزيه من أجل ارسال البعثات للكونغو الا ان طلبه قوبل بالرفض و كانت موافقه الملك ليوبولد على تكوين تلك الرابطه هي شرارة البدء فى استغلال خيرات الكونغو و بخاصه اشجار المطاط التى كانت من اهم الثروات هناك و التى كانت المدنيه الحديثه تحتاجه بشده و بخاصه بعد اختراع الاطارات المطاطيه التى تقوم عليها صناعه اطارات السيارات الحديثه و بينما كان الجميع يتحدث عن انسانيه الملك و عطفه و كرمه و كيف انه سيمنع تجارة الرقيق فى بلدان افريقيا و أنه سيقضى على تجارة العبيد فى العالم حتى اصبح الملك هو المخلص الجديد.

كان حديث على قدر كبير من الاهميه يدور فى احدى اركان القاعه بين السير ستانلى و الملك و اكبر رجال الاقتصاد فى الدوله عن كيفيه استغلال خيرات تلك القارة البكر و احتكار تجارة المطاط فى العالم و كيفيه تخزينه و نقله و انبرى احد الحاضرين يتحدث عن كيفيه الولوج الى الكونغو و كيفيه مواجهه السكان فى تلك المناطق و استشهد بأن امريكا اضطرت لاباده السكان المحليين حتى يتسنى لها السيطرة على الارض فكيف يمكن السيطرة على الكونغو و هى اكبر من بلجيكا حوالى اربعين ضعف ؟ الا ان ستانلى كان واثقا من قدرته على الاقناع حين بدأ يتحدث عن الكونغو بلهجه جادة:

"يا ساده ، ان هذة الارض البكر يسكنها قبائل و شعوب لا تعرف معنى الحضارة او الانسانيه ، لا يعرفون القراءة و الكتابه ، وثنيين ، و نحن سندلف اليهم من طريقين ، التبشير بالدين المسيحى و تعاليمه التى تحض على التسامح و العفو و الكرم و الطريق الاخر استغلال جهلهم و تخلفهم و قد نستطيع ان نهبهم بعض الهبات و الهدايا البسيطه مقابل تنازلهم عن الارض و ما عليها ، نحن لن نلجأ للعنف مطلقا و لن نحتاج لذلك".

رفع الملك ليوبولد كأسه:

"اذا لنشرب نخب الكونغو و نخب الرابطه البلجيكيه ، اول رابطه فى العالم لنشر الحضارة".

"نخب ملكنا العظيم و نخب الرابطه البلجيكيه".

رفع الجميع الكئوس و قد تعالت الضحكات فى اركان القصر و اشترك الجميع فى الرقص.

فى الصباح البلجيكى البارد قام الخدم باشعال المدفاة فى القصر الملكى حين دخل المندوب الفرنسى لمقابله الملك ليوبولد و قد اتى برساله من الحكومه الفرنسيه يبلغه باستنكار حكومه بلاده بانفراده فى اتخاذ قرارات بشان افريقيا و ان فرنسا لديها خططها هى الاخرى فى القارة الافريقيه و ان حكومه فرنسا سوف ترسل البعثات و الارساليات لشرق افريقيا لنشر الحضارة و الثقافه هناك و التبشير بالدين المسيحى و يجب على حكومه البلدين ان تتعاونا فى ذلك.

ادرك ليوبولد ان بلاده لن تستطيع الوقوف فى وجهه فرنسا فآثر الموافقه و اعلن ترحيبه بالتعاون و موافقته على تقسيم مناطق نفوذ كل منهما فى القارة الافريقيه.

بدأت رحلات ستانلى الى جنوب نهر الكونغو ، كان اجتماعه مع روساء القبائل من السهوله حيث تنازلوا عن الارض مقابل بعض الملابس الجديده و الهدايا و اصبح لستانلى الصفه القانونيه لاستغلال خيرات الكونغو و ثرواته.

،و

" دنقلا ـ السودان "

أشرقت الشمس فى سماء دنقلا العجوز على اراض شاسعه خضراء بجوار النهر الخالد و قد شمر الفلاحون سواعدهم لتنقيه الارض و حرثها ، علاقه ازليه تربط بين الفلاح السودانى و حيواناته و ارضه ، يعطى الفلاح الارض صحته و عافيته فتبادله العطاء بعطاء خير و حيوانات سلمت نفسها طواعيه لمسانده الفلاح فى رحلته الشاقه كل يوم لحرث الارض ، يعاملها هو كانها فرد من عائلته يشعر بالمها و اذا اشتد عليها الحر يسحبها للنهر فيحممها و يسقيها فيعود لها نشاطها و عافيتها ، اذا ولدت لديه بقرة او جاموسه قد تكون فرحته بالمولود اكبر من فرحته بمولود تنجبه زوجته ، علاقه متناغمه مع الطبيعه كقطعه موسيقيه لا يشوبها نشاز.

بعد ان انتهى التجار من دنقلا فى تحميل البضائع على الجمال و تم ربطها بعنايه تأهبت القافله للرحيل لتشق طريقها من خلال درب الاربعين حتى امبابه فى القاهرة ، وقفت مرجانه الطفله الصغيرة تبكى فراق اخوها الذى لم تفترق عنه من قبل و قد اصر ابوها حسان تاجر الحرير ان يصطحبه معه فى تلك الرحله بعد ان بلغ الثالثه عشر و اصبح فى نظر ابيه رجل يجب ان يتعلم اصول التجارة و لم تكن مرجانه تبكى فراق اخيها فقط و انما فراق امها ايضا التى اختطفها الموت منذ ثلاثه اشهر و لم يكن يؤنس وحدتها غير وجود اخيها عثمان بجوارها ، اما الان بعد ان رفض ابوها ان تصحبهم فى تلك الرحله و ان تبقى مع عمتها فقد اصابها الحزن لفراق الاخ و الخوف من اهوال الطريق.

كانت سعيده تنظر لها و هى تبكى فرق لها قلبها ، اقتربت منها و ربتت على كتفها بحنان ، نظرت الفتاة لسعيده و ذكرتها تلك الطبطبه الحانيه

بامها ، شكت الفتاه لسعيده كيف رفض ابوها سفرها معهم و كيف تخشى على اخيها و تشعر بالوحشه لفراقه مما اثار شجون سعيده و تذكرت جدها ، ذلك الرجل الذى تخطى عمره التسعون عاما ، لم تكن هى ايضا تفارق جدها منذ تلك الليله الليلاء التى اختطف فيها رجال الزبير ابوها و امها من القريه ، كانت فى الخامسه من عمرها لا تتذكر تفاصيل كثيرة عن تلك الليله و لكنها تتذكر كيف اخفتها امها قرب النهر بين الاشجار العاليه و كانت تسمع اصواتا لا تعرف هل هى اصوات الحيوانات فى الغابه ام اصوات صرخات آتيه من قريتها ، كانت الليله طويله جدا قبل ان ينبلج الصباح و يأتى جدها بحثا عنها و حينها سألته:

"لماذا تركتنى امى فى الغابه يا جدى ؟ الم تخشى على من الوحوش ؟".

كان جدها ينظر اليها بعطف و يقول:

"بل لانها خافت عليك من وحوش اقسى يا بنيتى".

بدأت القريه تتخلص من اثار المعارك التى دارت بحرق الجثث كعادتهم فى التعامل مع الموتى و اصلاح الاكواخ و تطبيب المصابين ، كان الجد حكيم القريه و رغم كبر سنه و الاهوال التى رآها فى حياته و فقدانه العديد من الابناء و الاحفاد فى معارك مثل تلك الا انه لم يفقد ايمانه بيوم سياتى تقتص فيه الالهه من الظالمين و يعود الغائب و يلتقى الجميع سعداء فى مكان ليس به ظلم او عدوان و كثيرا ما كانت تسمعه يتوسل للارواح الطيبه ان تحنو على ابنائه و تحفظ سعيدة ، كان له دور رئيسى فى تعليم اهالى القريه الطب و الفلك و تاريخ القرون السابقه ، سنوات مرت على سعيده فى حضن جدها يدللها و يهبها علمه الواسع و ينير دروب عقلها بافكار الحكماء و السابقين حتى اضحت الفتاة التى تحسدها فتيات القريه و يتمناها الراغبون فى الزواج إلى أن جاء ذلك

اليوم الذى انقلبت فيه حياتها رأسا على عقب و كان محور التحول فى حياتها.

افاقت سعيده من افكارها على النفير يعلن تحرك القافله و يقطع كل امل لها بالعوده لارضها و للجد فاغرورقت عيناها بالدموع ، تركت الفتاه مرجانه لتنضم لباقى الفتيات الاسيرات الا ان مرجانه امسكت بيدها و طبعت قبله عليها فاحتضنتها سعيده بحنان بالغ و مضت فى طريقها التى رسمته لها الاقدار.

ودعت القافله اللون الاخضر منذ ثلاثه ايام و كانها تسبح فى بحر من اللون الاصفر ليس له بدايه و لا نهايه و بدت القافله كعقد من الكهرمان فى جيد الصحراء القاحله او ككتيبه عسكريه انتظمت صفوفها بامر من القائد الريس قاسم ، فى المقدمه تجار التوابل و ريش النعام و الحرير يليهم تجار الحلى و الذهب و فى المؤخرة عيسوى المصرى تاجر النوق و صاحبه البرتو موظف البريد الايطالى الذى كان يحمل رساله هامه للخديوى من غوردون ، و كانت صداقه نمت بين عيسوى و البرتو رغم التفاوت فى العمر و الانتماءات الا انه كان يجمع بينهم حب النساء فقد تعارفا يوما فى احد بيوت المتعه فى القاهرة و التقيا مرة ثانيه فى السودان لدى احدى تجار المتعه و توالت لقاءتهما بعد ذلك ، كان عيسوى رغم ثراؤه الفاحش يهوى استقدام النوق من السودان الى مصر و كلما اتى للسودان كان يقضى الوقت مع البرتو و طالما سأله البرتو:

"اتقطع كل هذه المسافه طلبا للمتعه !!! انت حتما مجنون".

فيبتسم عيسوى ابتسامته العريضه من تحت الشارب الكثيف الذى يوليه عنايه خاصه جدا فيدهنه باغلى الزيوت التى يشتريها فى سفرياته و يهذبه كل اسبوع حتى انه من فرط اهتمامه بشاربه اصبحت لديه عاده

تلازمه فيمد يده كل بضعه دقائق للاطمئنان على الشارب و كأنه يخشى ان يفلت منه ، قال و هو يحاول ان يقنع البرتو بوجهه نظره فى السفر قائلا:

"يا عزيزى البرتو ، قيامى بتلك الرحله هو فى حد ذاته متعه ، هل تدرى انى ارتبط بتلك النوق بعد ان الازمها اربعين يوما فى رحلتنا عبر درب الاربعين حتى وصولنا لامبابة فاعرف الناقه العصيه و الناقه الابيه و الناقه الشريده ، حتى انى احيانا افكر فى اعادتها و استقدامها مرة اخرى ، متعتى فى استجلاب النوق و معاشرتها لا تقل متعه عن استجلابى النساء و معاشرتها".

يضحك البرتو الشاب ذو التسعه عشر عاما بوجهه الابيض و عيناه الرائقتان كبحيرة راكده من بحيرات لندن:

"هل ترى شبه بين النساء و النوق يا عيسوى ؟ لا يا سيدى ، لا اوافقك الرأى ، النساء هم فاكهه الحياه".

يستطرد عيسوى باسما:

"هناك فاكهه رخيصه قد تسبب لك الم فى معدتك من كثرة الذباب الذى تغذى عليها".

يرد البرتو معترضا بلكنته الايطاليه العربيه:

"هناك ايضا فاكهه غاليه الثمن مفيده للصحه".

رغم كل الخلاف فى الفكر و وجهات النظر بين عيسوى و البرتو الا انهما كانا خلال تواجدهما فى مصر و السودان لا يفترقان و كأن كل منهم وجد ضالته فى الاخر فاصبح عيسوى بالنسبه لالبرتو بمثابه الاب او الاخ الاكبر الذى ينبهه عند الانزلاق فى اى خطر و البرتو يعوض عيسوى شعور الابوة المفقود فقد سبق له ان تزوج تسعه مرات و لم

يستطع الانجاب و قد اشارت عليه احد العرافات بان احدى زوجاته عملت له عمل انتقاما منه و ان علاجه فى السودان و قد يكون ذلك سببا آخر لاصراره على القيام بتلك الرحله رغم كثرة مساعديه املا فى الحصول على علاج لحالته.

اشتدت الحرارة فى النهار مما اضطر القافله للتوقف كل ثلاثه ايام لاطعام الجمال و سقياها ، و فى تلك الفترة ينصب سوق القافله ليستطيع كل مسافر الحصول على ما يلزمه من احتياجاته التى تمكنه من مواصلة الرحله ، ملابس و اعشاب للتداوى و الاطعمه و الحلويات ، و كان المرتحلين ينصبون الخيام للراحه و فى الليل تجتمع النساء فى احدى الخيام للتعارف و التسامر ، و كثيرا ما كانت تتم خطبه فتيات و تزويجهم فى مثل تلك الرحلات و هذا كان امل دليله للخلاص من زوجه ابيها ، كانت تتمنى ان تراها احدى زوجات التجار فتخطبها لابنها او لاخيها و تتخلص من عبوديه كاتيا ، و فى تلك الليله اجتمعت النساء فى الخيمه و ارتدت دليله الثوب السودانى البرتقالى المرصع بالفصوص و الخرز فبدت بشعرها الطويل الناعم و عيناها العسليتان و فمها الصغير فى ذلك الثوب كمزيج رائع من الثقافه السودانيه و الجمال الارمنى ، امسكت السيده سكينه بالدف تنقر عليه باصابعها و تدندن احدى الاغنيات السودانيه القديمه و قامت الفتيات للرقص و جذبت احداهن دليله التى كانت تتمايل فى دلال فتعلق السيده سكينه و هى ترى الطفله التى ترعرعت فى حضنها اصبحت شابه جميله:

"ربنا حارسك يا دليله ، الله يرحم امك يا بنيتى".

و اثارت تلك الكلمه شهيه كاتيا للشجار.

"امها ، الجاريه الارمنيه".

توقفت دليله عن الرقص لتنظر لكاتيا نظرة حرقت اعصابها:

"امى لم تولد جاريه يا كاتيا و قد تتعرضين انتى ايضا للاسر و تباعى فى سوق النخاسه فتصبحى جاريه للبقيه من عمرك"

اتخذتها كاتيا فرصه للنواح و القاء التهم على دليله كعادتها.

"انتى تدعين على يا بنت الجاريه ! انتى تكرهينى و تتمنين لى الشر".

و تنظر للنساء حولها:

"هذه الفتاة الشريرة ، انها تسخر الجن و تعمل لى الاعمال حتى لا انجب من ابوها".

لم تكن كاتيا تفوت فرصه دون ان تنكد على دليله و تكسر بخاطرها و كانها تعاقبها و تحملها فاتورة العمر الذى سرقه منها سمعان ابوها بعجزه و ضعفه ، لم تنسى كاتيا حياتها فى مصر قبل ان تتزوج سمعان و ترحل معه للسودان منذ عشر سنوات ، عاشت فى الاسكندريه فى بيت ابيها تاجر الاثاث ذو الصيت و الاطيان خمسه عشر عاما طلباتها اوامر هى و اخوتها الصبيان بل ان ابيها كان يغدق عليها من حنانه و عطفه اكثر مما كان يغدقه على اخوتها ، خزانتها تكدست بالملابس و المجوهرات ، يصحبها معه فى الحفلات الموسيقيه حتى مرض ابوها بمرض عضال انفق فى علاجه كل ما يملك دون جدوى حتى اضطر لبيع املاكه و اطيانه ثم توفى تاركا اياها هى و اخوتها فى فقر و عوز ، اضطر الصبيان للعمل فى محلات اليهود للانفاق عليها و امها الا ان الدخل كان يكفى متطلبات الحياة بالكاد اضطرت هى للعمل عند كريمة التى كانت تخيط لها ملابسها من قبل عندما عرضت عليها كاتيا فكرة العمل لديها لم تمانع و ابدت موافقتها على الفور الا انها عرضت عليها اجر يومى يكاد يكفيها و تعللت بانها مازالت فى طور التدريب و التعلم ، اضطرت للموافقه على امل ان تجد عملا اخر فى وقت قريب ، كانت تقضى ساعات طويلة فى خياطه الدانتيل و تطريز الفساتين بالخرز و

الترتر ، احيانا كانت تغلبها دموعها حين تدخل للمكان فتيات يتعرفن عليها و يبدين اسفهن لما حدث لابوها و لاسرتها و قد تمد احداهن يدها بمبلغ مالى و تضعه فى يد كاتيا ، ضاقت كاتيا يوما بعد يوم بحياة الضنك و الضيق ، لم يكن يهون عليها سوى ذلك الشاب الوسيم ابن السيدة كريمة ، كان يعمل فى احدى ورش الذهب و ربطت بين قلبيهما علاقة بريئه من العطف من جانبه و الحب من جانبها ، تتذكر ذلك اليوم الذى دخل عليها يحمل لفه فى يده و قد اخفاها وراء ظهره قائلا:

"لقد احضرت لك هديه ، ارجو ان تقبليها".

قالت بدلال و هى تبتسم:

"هذا يتوقف على الهديه".

اعطاها اللفه و هو يبتسم للمفاجأة التى الجمتها كانت الهديه فستان من الحرير الاخضر مطرز بالخرز و يزينه على الصدر ازرار لامعه و دانتيل ، كادت تطير من الفرح ، دخلت حجرة القياس مسرعة و خرجت و قد ارتدت الفستان ، ابدى اعجابه الشديد بمظهرها واظهرت له امتنانها و سعادتها ، تعددت الايام و الليالى بعد ذلك و العلاقه البريئه بينهما تتطور الى حب متبادل و شوق و لوعة و لقاءات متعددة ، افضى كل منهم الى الاخر مكنون صدره و ما يحمله قلب كل منهما للاخر من حب صادق لا تشوبه شائبه ، الا ان الايام لا تحمل دائما للعاشقين سوى المرارة و الحسرة ، وشى احدهم بتلك العلاقه عند السيدة كريمه التى ثارت ثائرتها و اقسمت باغلظ الايمان ان تشرد كاتيا و تطردها من العمل و ان تزوج ابنها فى اسرع وقت بفتاة مسلمه مثله و بالفعل لم تمضي ايام قليله حتى كان يزف الى عروسته.

بكت كاتيا كما لم تبك من قبل و وجدت نفسها وحيده بعد هجرة اخوتها كل واحد منهم فى بلد بحثا عن لقمه العيش و تذكرت ذلك العجوز الذى

كانت تراه فى ورشه الذهب كلما ذهبت لملاقاة حبيبها ، كانت نظراته تحمل الكثير من المعانى ، رجلا تجاوز الخمسين يسيل لعابه كلما رأى تلك الفتاة اليافعة يريد ان يستدعى معها الشباب الذى ولى احيانا يجد الانسان راحته فى الموت و قد قررت كاتيا الانتحار بزواجها من ذلك الرجل السودانى الشائخ ، تعددت زيارتها للورشه بحجج عديدة ، فى كل مرة كانت تمنحه ما يثير شهيته نحوها دون ان يتذوق منها شيئا حتى اصبح هو من يبحث عنها و يتتبع اخبارها و يمكث امام الدار التى تسكن احدى غرفه حتى تقدم لخطبتها ، وافقت امها دون تردد فقد وجدت فيه طوق النجاة لانقاذهم من حياة الشظف التى يعانين منها ، تزوجته باكيه و رحلت للعيش معه فى السودان لترعى ابنته من جاريته الارمنيه.

منذ اليوم الاول اصابتها الغيرة من تلك الفتاة الصغيرة المليحه و تمنت لها مستقبل مظلم و حياة بائسه كحياتها و بات كل همها ان تنكد على الفتاة و ان توقع بينها و بين ابيها ، كلما رات منه عطف عليها كلما اوغر ذلك صدرها و بثت سمومها و حقدها نحو الفتاة.

بكت دليله من كلمات كاتيا الجارحه عن امها الارمنيه ، تعكر الجو و بدات النساء كل واحده فى الانسحاب لخيمتها حين اخذتها الست سكينه فى حضنها.

"لا تحزنى يا بنيتى ، الغيرة كالنار و كاتيا تغار منك ، الا تعرفين ماذا فعل قابيل حين غار من اخيه".

تهز دليله رأسها بالنفى فترد سكينه:

"قتله و لم يعرف اين يوارى جثته".

تبتسم دليله:

"اذا اشكر الرب انى مازلت حيه".

تبتسم سكينه و هى تمسح وجهه دليله.

"اريد ان ارى تلك الابتسامه تنير وجهك دائما يا حبيبتى".

اما مجالس الرجال فكانت تختلف كثيرا ، فبعد الغداء كانوا يجلسون لشرب الشاى المنعنع و تدخين الشيشه العثمانى و التشاور فى امور التجارة و الاسواق و الحاله الاقتصاديه فى مصر و السودان و لا يعلو صوتهم الا عند الحديث فى السياسه و كان سمعان التاجر السودانى يشعر دائما باضطهاد الحكم المصرى للسودان فكان يرى ان اسماعيل لا يولى احد من السودانيين شئون الدوله السودانيه او فى منصب من المناصب الهامه مثل المصريين و حينما صرح بهذا الراىء انطلق عيسوى فى وجهه:

"انت مخطىء يا سيد سمعان ، الخديوى لا يملك من امره شىء ، الحال فى السودان كالحال فى مصر ، الانجليز و الفرنساويه هم من لهم الكلمه العليا فهم من يولون و هم من يخلعون ، الوالى مكبل اليدين ، استطاعوا استدراجه لفخ الديون حتى تصبح لهم الكلمه العليا فى مصر و السودان".

يهز سمعان رأسه الصغير يمينا و يسارا معبرا عن رفضه لكلام عيسوى:

"و لكن الا توافقنى يا سيد عيسوى ان اهتمام الخديوى كله ينصب فى صالح تطوير و تقدم الدوله المصريه و اهتمامه بالسودان ينبع فقط من رغبته فى استغلال خيراتها و تسخيرها لخدمه المصلحه المصريه؟".

فتدخل برهان بطيبته السودانيه المعهوده:

"يا اخوانا شنو هذا العراك ! لا يوجد عبر التاريخ شيء اسمه مصر و السودان بل اقليم الشمال و اقليم الجنوب فى مملكه واحده هى مملكه مصر و السودان ، الدعاوى التى تنتشر هذه الايام ما هى الا محاولات لنشر الفرقه بين شقيقين لا يجب ان يستجيب لها العقلاء".

ارتفع صوت سمعان و بدا يشيح بوجهه عن عيسوى موجها حديثه لبرهان:

"الم تشهد بنفسك ما حدث من الخديوى للزبير ؟ الرجل ذهب ليشتكى الانجليز و يدافع عن مصالح اهله من التجار حتى نفاه و ارسله لحرب لا يعرف مداها الا الله"

عيسوى اطلق ضحكه سخريه.

"و من هو الزبير ؟ اليس هو تاجر الرقيق الذى يحارب فى صفوف الانجليز ضد اهله من السودانيين ؟ سيد سمعان انت تقلب الحقائق".

يتقمص سمعان دور الثوار و هو يتحدث عن السودان و كأنه واحدا منهم.

"و الثوار الذين تم محاربتهم و التنكيل بهم و الضرائب الباهظه التى فرضها على الشعب السودانى ، ما قولك يا سيد عيسوى ؟".

يربت عيسوى على شاربه للاطمئنان على هيبته و يرد على سمعان بثقه:

"اقول لك ان السجون فى مصر تمتلىء ايضا بالثوار و الشعب المصرى معظمه يرزح تحت الضرائب الباهظه و الفقر هو السمه الاساسيه لعامه الشعب اما اذا كنت تقصد باهتمامه بمصر القصور و المتنزهات احب اطمئنك انها للاسرة المالكه و عليه القوم و هى محرمه على الشعب المصرى يا سيدى".

"و الانجليز و استبدادهم فى السودان ؟".

القى سمعان الكلمات بنبرة تحدى ابتسم لها عيسوى و هو يقول:

"الانجليز يستبدون فى مصر اضعاف السودان يا سيدى ، مصر و السودان مصيرهم واحد يا سيد سمعان الا اذا كان لك انت رأى ثانى بحكم اصولك اليهوديه".

قام سمعان و هو يستشيط غضبا و دخل الى خيمته و انسحب برهان لتدخين الشيشه و ظل البرتو مع عيسوى و اخذ يؤنبه على غلظته فى التعامل مع سمعان و هو لم يعتد من عيسوى على تلك القسوة.

"لقد كنت قاسيا بعض الشىء".

رد عيسوى و لازال وجهه يحمل حنقا و ضيقا:

"انه يهودى يحمل مشاعر كراهيه لمصر بمقدار كراهيته للاسلام و المسلمين"

يرد البرتو و صوته يحمل نوعا من الشفقه:

"انت مخطىء عيسوى انا يهودى و لا اكرهك".

يشعر عيسوى بان كلامه كان جارح لالبرتو اليهودى الايطالى فيضع يده على كتفه و هم يتجهون للخيمه.

"عزيزى البرتو ، انت مختلف عنهم ، لذلك نحن اصدقاء حتى الان".

يكمل عيسوى فى محاوله لاغاظة البرتو الذى بدت على وجهه علامات التعجب من كلمات عيسوى:

"حتى الان يا عزيزى ! حتى الان !".

لم يكن البرتو يشعر بالنعاس فى تلك الليلة المقمرة فقرر ان يخرج للسير فى جو الصحراء الساحر ، بدت السماء كثوب من القطيفه السوداء زين بالاف الماسات و تصور لو استطاع ان يمد يده و يقتطف تلك الماسه الكبيرة هناك ، انها اكثرهم لمعانا و فكر لو يستطيع ان يصنع منها عقدا ، سأل نفسه بخيبه امل لمن يهديه ؟ لقد توفيت امه منذ عامين بعد ان عانت من مرض عضال ، كم تعذبت و كتمت الامها حتى لا تزعجه و تعكر صفو حياته ، لو كانت امه حيه لكانت هى الوحيدة التى تستحق هذه النجمه اللامعه ، اما اخته الوحيدة فقد سافرت بعد وفاة امهم مع زوجها و اولادها الى جنوة و لم تفكر من وقتها بالاطمئنان على احواله و هو ليس لديه عشيقه رغم كل النساء اللاتى عاشرهن فى حياته لم يجد بينهن من تستحق لقب عشيقه البرتو.

"لا يوجد فى حياتى احد يستحق هذه الجوهرة ، اذا فلاتركها فى مكانها".

كان يحدث نفسه حين التفت حوله ، وجد نفسه وحيدا فى مكان مظلم ليس له بدايه و لا نهايه ، ظلام يغلف المكان ، حاول ان يبحث بنظره عن الخيام لم يجدها ، يبدو انه قد ابتعد كثيرا.

"ما هو الحل الان يا البرتو ، قد اسير فى اتجاه خاطىء فاتوغل فى الصحراء و لا استطيع العوده و قد يبحثون عنى و قد ابتعدت فلا يجدنى احد و اذا بقيت هنا قد يفاجئنى عقرب او ثعبان".

بدأ البرتو يتوتر و يشعر بخوف حقيقى و سرت رعشه فى جسده و تسمر فى مكانه حين ارتطمت قدميه بشىء و سمع صوتا مدويا فى الصحراء.

،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،

" القسطنطينية "

ملأت رائحه الحرب المكان و تكدست مستشفى الهلال الاحمر فى مدينة القسطنطينيه بالجثث و المصابين باشلائهم المفقوده.

رقد الزبير على احد الاسرة لاسعافه بعد اصابته جراء البرد القارس باعتلال فى صحته ينظر لشباب فقدوا اطرافهم فى حروب يعتبرونها حروب مقدسه للدفاع عن مصالح الخلافه العثمانيه و تذكر كم قاسى فى تلك الحروب لخدمه الدوله العثمانيه و كم تفانى فى الدفاع عن اراضيها فى كل مكان ، حتى هذه الحرب الذى ارسله اليها الخديوى اسماعيل بعد تحديد اقامته فى مصر و قد كان فيها على رأس اربعه الاف جندى استطاع ان يفك تحصينات العديد من المواقع و ان يحرر الجنود المحاصرين و لولا ذلك البرد القارس الذى لم يكن هو و الجنود معتادين عليه لحدثت الهزيمه.

تواردت الانباء بان الجنود الروس على وشك الدخول للقسطنطينيه و احتلالها حين لجأ السلطان عبد الحميد الثانى للهدنه مستعينا بفرنسا و بريطانيا لوقف الحرب و اللجوء للمفاوضات و كانت الحرب الروسيه التركيه هى استكمالا لحرب القرم الذى دارت رحاها سنوات طوال حاولت فيها روسيا استرداد اراضيها من الخلافه العثمانيه لكنها فى كل مرة كانت تمنى بخسائر كبيرة الا ان ضعف الخلافه فى عهد السلطان عبد الحميد و الذى اعتلى عرش الامبراطوريه العثمانيه فى انقلاب على اخوه مراد الخامس الذى اتهموه بالجنون بعد توليه العرش بعده اسابيع فتمت ازاحته و تنصيب عبد الحميد بدلا منه و باتت الخلافه فى اشد حالات التفكك و الضعف و بخاصه بعد انتشار النزعه القوميه فى العديد من البلدان الواقعه تحت سيطرتها مما ادى لقيام الثورات و الحروب ضدها للاستقلال مما ادى لخسارتها فى تلك الحرب الاخيرة و

التى استتبعها مفاوضات كان من نتائجها التنازل عن المزيد من الاراضى و لم يكن ما يواجه السلطان العثماني هو الخطر الخارجى فقط و انما ايضا الدسائس الداخليه و النشاطات السريه و وجود العملاء للغرب و الدول الاوربيه التى اجتمعت على اضعاف الخلافه و بخاصه بعد رفضه تخصيص فلسطين لتكون وطن قومى لليهود.

و كانت محاوله الانقلاب التى قام بها بعض الخونه بالاتفاق مع حكومه فرنسا و بريطانيا لعزل عبد الحميد و تنصيب اخوه مراد مرة اخرى سبب كبير فى تغيير سياسه عبد الحميد فى الحكم فاتجه لحكم الفرد الاوحد و بدأت فى عهده اول منظمه استخباراتيه هى منظمه الامن السرى و بدا فى اتخاذ سياسات مختلفه عن سياسته السابقه فى الحكم رغم ان الدوله العثمانيه منذ نشاتها نصبت نفسها كخلافه اسلاميه و قائدها هو خليفه المسلمين.

و رغم التوسعات العديده التى قامت بها شرقا و غربا جنوبا و شمالا اما لرفع الظلم و الاضطهاد عن المسلمين المحكومين فى دول غير اسلاميه او للدفاع عن الاراضى الاسلاميه و وحدتها الا انه كان يشوبها الكثير من السلبيات التى ادت فى النهايه للضعف و التفكك ، فقد قامت على الانقلابات و الاغتيالات بين زعماؤها و الذين احيانا يكونوا من ابناء الاسرة الواحده حتى ان الاخوة قد يتنازعون فيما بينهم على عرش الخلافه نزاعا قد يصل للقتال و كذلك اضطهاد بعض الحكام المسلمين للرعايا من الملل الاخرى مثل النصارى و اليهود و الارمن و تعمدها اضعاف الولايات الواقعه تحت حكمها حتى تضمن ولائهم لها بصفه دائمه مثلما حدث مع مصر منذ وقوعها فى قبضه الخلافه التى عمدت لعثمنه مصر و اضعاف قوتها و نفوذها و بخاصه ايام حكم محمد على و الذى حارب الدوله العثمانيه بجيشه المصرى من اجل الحفاظ على مكتسباته حتى بات جيشه يهدد القسطنطينيه حين لجأ العثمانيين

للاستنجاد بالروس لحمايتهم الا ان خشيه الدول الاوربيه من زياده قوة الدوله المصريه و نفوذها دفعهم للضغط على محمد على لقبول ابرام معاهدات مع دوله الخلافه و البقاء اسميا تحت سيطرتها ، و كان الخديوى اسماعيل ينتهج سياسه ابوه من النزعه للاستقلال و يستشعر بوجوب تحرر مصر من وطأة الخلافه و السير بها نحو تقدم و نهضه لن تحققها ابدا و هى مقيده باغلال الدوله العثمانيه الا انه يبدو ان قدر مصر ان تبقى فى الاغلال فتم تحجيم اسماعيل و تقييده بديون عجز عن سدادها حتى يظل للدول الاجنبيه اليد العليا للتحكم فى شئون مصر.

ابلى الزبير بلاءا حسنا بعد ان ارسله الخديوى اسماعيل لتلك الحرب رغبه فى التخلص منه و مما قد يسببه من مشكلات فى السودان و رغم ان الزبير فطن الى خدعه استبعاده عن وطنه الا انه كان يرى فى تلك الحرب المقدسه للحفاظ على وحده اراضى الخلافه العثمانيه و الدفاع عنها شرفا و وطنيه لا تقل عن خدمه بلاده السودان ، و قد ارسل لابنه سليمان يخبره انه ذاهب للقاء الروس فى القرم و ليطمئن عن احواله و احوال السودان و ليطلب منه ان يهدىء الاوضاع هناك لئلا يستغل اعداء البلاد الاضطرابات لتحقيق مطامعهم الشخصيه و لما لم يصله رد على رسالته بدأ يتوجس خيفه ان يكون مكروها قد اصابه.

حاول الزبير ان يسافر للسودان للاطمئنان على احوال وطنه و ابنه الا ان ظروف الحرب حالت دون ذلك و امر السلطان العثمانى بتوفير مكان لاقامته فى احدى القصور البيضاء التى تطل على مضيق البسفور.

امتلا القصر الذى يحتوى على عشرات الغرف بالضيوف من كبار رجال الدوله العثمانيه و الذين منعتهم ظروف الحرب من العوده لبلدانهم و قد شيد القصر على الطراز العثمانى ، له حديقه اماميه كبيرة ، اما فى الخلف فكانت اسطبلات الخيول و المراعى الواسعه ، و اهم ما

يميز القصور فى ذلك الوقت هو الوانها فكانت تخصص الالوان الفاتحه لقصور المسلمين اما غير المسلمين فتلون قصورهم باللون الرمادى و العاملين بالدوائر الحكوميه يقتضى عليهم تلوين قصورهم باللون الاحمر و من يخالف القانون يتم الحجز على امواله.

وقف الزبير خلف زجاج الشرفه ينظر للمياه الزرقاء و قد علت فيها الامواج و اهتاجت و تلونت السماء باللون الرمادى و تساقطت الثلوج بغزاره فاتشحت الاشجار فى الحديقه باللون الابيض و كانما الطبيعه قد التحفت كفنا ايذانا بالرحيل فزادت الجو كآبه و ملأت الزبير شوقا لشمس السودان الملتهبه و نهر النيل ، ذلك الشاب العجوز صاحب العمر و رفيق الحياه ، و اذاب الحنين قلبه فقرر ان يكتب رسالة لابنه سليمان التى لم تكن العلاقه بينهما علاقه اب بابنه فقط بل كان سليمان هو البكر لابيه و من صفات العرب انهم يحتفظون دائما بمكانه خاصه للابن البكر فهو عائل الاسرة فى غياب الاب و هو الذراع التى يستند عليها الاب فى الكبر و حامى حمى الام و الاخوات و المعلم و القائد للاخوة الصغار و تزيد علاقه سليمان عن ذلك بانه المسئول عن التجارة و الاموال و مكانة الاسرة فى السودان فى غياب ابيه.

بدأ الرساله فطمئن سليمان على احواله و كيف انه فخر للعسكريه السودانيه و انه ابلى بلاءا حسنا فى الحرب و كيف انه لولا البرد الذى لم يتحمله الجنود لكانوا حققوا النصر على الجيش الروسى مثلما حدث فى المرات السابقه.

"و اعرفكم يا ولدى بانى ساعود للسودان فى اقرب فرصه سانحه ، اه لو تعلم يا سليمان كم اوحشتنى يا ولدى ، انت و امك و المديده الحارة و الويكا الساخنه فى ليالى الشتاء و السهر فى ضوء القمر السودانى و رائحه التراب الزعفرانى ، اتمنى العوده فى اقرب وقت لوطنى ، ارجو

ان تطمئنى على احوالكم و احوال السودان فى اقرب فرصه يا سليمان ، القاك على خير يا ولدى".

لم تكن انباء مقتل سليمان قد وصلت للزبير نتيجه لاحوال الحرب التى كانت تعرقل وصول الرسائل من و الى اسطنبول ، امر الزبير احد الخدم بارسال الخطاب و ان يجهز له ملابسه و تأهب للخروج فتعجب الخادم قائلا:

"الان يا سيدى !! فى هذا البرد القارص !! انت لا تزال مريض"

دعا السلطان عبد الحميد المشتركين من كبار العسكريين فى الحرب الى مأدبه غداء فى قصر الخلافه لمعرفه اسباب الهزيمه و موقف القوات العسكريه من حيث نقاط الضعف و القوة و القدرة على مواصله الحرب و بخاصه بعد ان فقدت الخلافه العديد من البلدان التى كانت تحت سيطرتها من خلال المفاوضات و توقع السلطان نتيجه لتأجج الثورات فى بلدان كثيرة بدعوى الاستقلال و انتشار النزعه القوميه ان تقوم حروب اخرى لاستقلال تلك البلدان التى تطمع بها روسيا و الامبراطوريه النمساويه.

انتهى اللقاء بالسلطان العثمانى و اشاد بجهود القاده و الجنود و امر بمنحهم النياشين و الاوسمه و قد منح الزبير لقب فريق و هو اول من حصل على هذه الرتبه فى السودان نظرا لاستبساله فى القتال و شجاعته و منح ايضا النيشان العثمانى الثالث من ارفع الاوسمه التى كانت تمنح للعسكريين و استطاع الزبير ان يستصدر امر من الخليفه بعودته للسودان و الغاء الامر الخديوي بتحديد اقامته فى مصر.

تأهب الزبير للعودة الى وطنه ، ذهب لمستشفى الهلال ليودع جنوده الذين مازالوا فى مرحله العلاج و ليشد من ازرهم و اثناء توجهه للركوب من اجل السفر لمصر عن طريق سوريا و بلاد الشام حتى

فلسطين و منها لسيناء قابل احد كبار رجال الدوله المصريه و كان فى مهمه رسميه و اضطر للسفر الى مصر و حين علم ان الزبير فى طريقه إلى هناك عرض عليه ان يصحبه فى رحلته فرحب الزبير و قام الرجل بتقديم واجب العزاء للزبير الذى لم يكن يعى عمن يتحدث فى بدايه الامر حتى اخبره الرجل بمقتل فلذه كبده سليمان و كيف ان غوردون استدرجه للقتال.

مادت الارض تحت قدمى الزبير و شعر بآلام شديده فى صدره ، حاول التماسك قدر استطاعته الا انه لم يستطع فبكى بكاءا اثار حيرة كل من يعرف ذلك الرجل القوى القاسى القلب الذى لاقى الاهوال فى حروب كثيرة و لم يهاب الموت فى كل مرة الا ان مرارة فراق سليمان كانت هى القشه التى احنت ظهر الزبير و اذاقته طعم العلقم فى البقيه الباقيه من حياته و قد اقسم على الانتقام من غوردون ثأرا لدم ابنه سليمان.

،و،

" قصر الجزيرة ـ القاهرة "

تطايرت اوراق الشجر فوق الارصفه بفعل رياح الخريف البارده و تطاير هنا و هناك حين انتصف ليل القاهرة و وقف الحارس امام القصر المضاءة نوافذه حيث تعلو الموسيقى و الضحكات.

اعتاد الخديوى اسماعيل اقامه الحفلات كل شهر لكبار رجال الدوله و الاعيان و رغم عشقه لمصر الا انه كان ينظر بانبهار لكل ما هو افرنجى حتى بدأت معالم الدوله المصريه تتبدل فى عهده فى كل المجالات و نتيجه لانتشار التعليم بين الطبقات المختلفه فبدا الناس يستبدلون الجلباب بالبدله الافرنجى و يقيمون الحفلات و يقضون وقتا فى المتنزهات و الحفلات الموسيقيه على غير عاده الشعب المصرى ، و قد بدأ اسماعيل يهتم بالفنانين المصريين فضم المطرب عبده الحامولى بعد ان اعجبه صوته الى حاشيته و اصطحبه معه للاستانه ليتعلم اصول الغناء التركى فاصبح يمزج بين الفن التركى و المصرى مما كان له تأثير طيب فى مستمعيه ، الا ان الامور ساءت بين الحامولى و اسماعيل بعد ان رفض الحامولى غناء زوجته فى حفلات الخديوى لغيرته الشديده عليها حيث كان اسماعيل يوليها رعايه و اهتمام و اعجاب شديدا بصوتها و جمالها و كان لرفض الحامولى غناء زوجته فى الحفلات و ارغامها على اعتزال الغناء اثرا غير محمود عند الخديوى الذى ارسل الحكمداريه لاحضار عبده الحامولى حيا او ميتا و لولا وساطه بعض الاقرباء لكان اهدر اسماعيل دمه ، كان اسماعيل غاضبا و هو يوبخ عبده الحامولى الذى وقف امامه فى خضوع:

"الا تريد ان تغنى زوجتك فى حفلات الخديوى ؟ اى شرف ينالك انت و زوجتك يا حامولى من غنائكم فى قصر الخديوى !".

اشار عبده الحامولى بيديه و هو يطلب العفو من الخديوى قائلا:

"يا مولانا انا لى الشرف انى اقف فى حضرتك و لكن انا اريد ان تكون المظ زوجه لى فقط ، هل اخطئت فى ان اغار على زوجتى ؟".

لوح اسماعيل بيديه نعبيرا عن عدم رضاؤه قائلا:

"بل اخطات المظ فى زواجها منك عبده الحامولى ، يبدو انك تخشى من منافستها لك".

اضطر الحامولى امام اصرار الخديوى ان يسمح لالمظ بالغناء فى تلك الليله.

ابدى غوردون سعادته بصوت المظ و هى تؤدى دورها الشهير "العصفور" و رغم انه يهوى موسيقى الاوبرا الا ان الطرب المصرى كان يجتذب اذنيه و يلقى استحسانا كبيرا منه ، ابتسم الخديوى و هو يحيى صديقه الجنرال الانجليزى الذى كان فى زيارة قصيرة للقاهرة متسائلا و هو يمازحه:

"ما رأيك جنرال ، الم تؤثر هذه الحفله على قراراتك ؟ الم يستطع صوت المظ الساحر ان يغير رأيك ؟".

ابتسم غوردون و علق على مزاح الخديوى:

"ان صوتها ساحر فعلا .."

كان غوردون يعتز بصداقته بالخديوى اسماعيل و يعترف بفضله فى توليه حكمداريه السودان بعد ان انهكته استكشافاته فى مديريه خط الاستواء و كان يتمنى ان يرد الجميل لصديقه حين عرض عليه رئاسه اللجنه التى سوف تشرف على تسويه ديون الخديوى و قد ابدى موافقته فى البدايه الا انه اشترط الا يكون الدائنين اعضاء فى هذه اللجنه فكان يعلم تماما ان وجود الدائنين من شأنه افشال عمل اللجنه و توريط

الخديوى فى مزيد من المشاكل و لم يكن غوردون يحب ان يقوم بدور الشاهد الصامت على الايقاع بصديقه اسماعيل فقرر الرفض و العوده الى السودان التى كانت الثورات و القلاقل تزعزع استقراره و بخاصه بعد بدايه ظهور ما يسمى بالحركه الاسلاميه المهديه التى قام بها محمد المهدى السودانى الذى بدأ فى تشكيل الحركه لرفع الظلم العثمانى الانجليزى عن السودان و قد وصف نفسه بالمهدى المنتظر الذى يقوم بتخليص الناس من المظالم التى تقع عليهم و قد انضم بعض رجال الزبير الي تلك الحركه مما دعا غوردون للشك بانه ربما يكون هناك اتصال بين الزبير و هذه الحركه التى بدات تنشر أفكارها و التى كانت تمثل خطورة كبيرة على التواجد البريطانى فى السودان و كانت فكرة الجهاد التى يدعو اليها المهدى و التى اجتذبت الشباب السودانى هى السبب الرئيسى فى قوة الحركه و كأن الخديوى اسماعيل يقرا افكار غوردون حين بدأ حديثه:

"لابد من عوده الزبير للسودان يا جنرال ، انه الوحيد القادر على اخماد هذه الحركه المهديه".

الا ان غوردون و نتيجه لشكوكه تجاه الزبير كان له رأى اخر.

"و لكن الخوف ان يكون وجود الزبير في حد ذاته هو ما يؤجج الحركه اكثر و بخاصه ان الزبير يظن ان لنا نحن الانجليز علاقه بمقتل ابنه سليمان".

استطرد الخديوى:

"انا اثق فى حكمك على الامور يا جنرال و اتمنى الا تسوء الامور اكثر من ذلك و بخاصه ان ثورة المهدي قد بدا يعلو صوتها".

استطرد غوردون:

"لا تقلق اجناب الخديوى ...نحن نمسك بزمام الامور جيدا فى السودان".

عاد صوت المظ الساحر يشدو باعذب الادوار التى اضافت حاله من البهجه بين الحاضرين ثم تبعها عبده الحامولى بالغناء مرة اخرى و عزفت الفرقه الموسيقيه بعض الالحان الغربيه التى قام على اثرها الحاضرين بالرقص الا ان غوردون فضل ان يتمتع بسماع الموسيقى فى شرفه القصر وسط الاجواء الخريفيه متابعا بعينيه حركه الاشجار و هى تتمايل بفعل الرياح ، نظر للسماء و تذكر سعيده ، كانت عينيها تشع ضوءا مثل هذا البدر و تسائل فى نفسه ، يا ترى ما حالة سعيده الان ؟ ما هو مصيرها تلك الفتاة البريئه التى لم تجنى ذنبا فى حياتها ؟ و الفتيات الصغيرات التى اختطفهن القدر من احضان امهاتهم ليلقى بهم فى مستنقع العبوديه و الذل ؟

تمنى غوردون من قلبه السلامه للجميع ، اغمض عينيه و تنشق رائحه الورود التى كانت تحمله   ـارده.

،‘

" درب الأربعين "

دارت الافكار براس البرتو سريعا حين ارتطمت قدمه بشيء و سمع صرخه مدويه فى ليل الصحراء.

هل ما سمعه كان صرخه انسان او صوت حيوان من حيوانات الصحراء ؟ هل هو من جن الصحراء التى طالما سمع عنهم من التجار السودانيين الذين تكثر حكايتهم عنهم ؟ و كيف انه يخرج فى الليل و يظهر للتجار و قد يتلبس بجسد احدهم فيسبب له مس من الجنون فيصبح من مجاذيب الصحراء ؟ التفت البرتو حوله مرة اخرى الا ان الظلام كان دامسا مما قطع عنده كل امل بالنجاه ، حاول ان يبحث عن شيء يستطيع الدفاع به عن نفسه و لما لم يجد استسلم لاقداره حتى سمع صوت امرأة تأمره بالابتعاد ، نظر الى مصدر الصوت ، كان يمشى ببطء و حذر ، كانت الهيئه لامرأة ترتدى الثوب السودانى المعروف لالبرتو ، ارتعش صوت البرتو و هو يسألها:

"من انت ؟ من الانس ام الجن ؟".

لم يتلقى البرتو ردا و لم يستطع ان يتبين وجه المرأة فقد كان الظلام شديدا و كانت هى تخفى وجهها بالثوب فعاد يسأل:

"هل انت جنيه الصحراء".

اقترب قليلا فامرته ثانيه بالابتعاد ، لم يتحرك البرتو و كأن هناك قوى خفيه تجذبه نحو المرأة التى لم يتبين ملامحها الا ان صوتها له سحر و نغمه توحى بان المرأة الواقفه امامه جميله الملامح ، كان حدس البرتو فى النساء من كثرة معاشرتهن لا يخيب ابدا ، يستطيع ان يميز المراة الجميله من مشيتها احيانا او من كعب ارجلها و احيانا اخرى من صوت ضحكتها ، هذه المراة امامه صغيرة السن لم يتعدى عمرها العشرون

عاما ، لها شخصيه قويه اكتسبتها من ثقتها بجمالها ، كل هذا استطاع البرتو ان يستشفه من نبرة صوت المرأة الواثقه الامرة و لكنه لم يستجب للامر ، لا يعرف لماذا ، هل اثاره الفضول لرؤيه وجهه امراة سودانيه تقضى حاجتها فى الصحراء ليلا ؟ ام لانه كان يستأنس بوجود شخص اخر معه بغض النظر عن كونه رجل او امرأه فى ذلك الليل البهيم ؟ او ربما املا فى ان تدله على طريق العوده للخيام ، وقف البرتو صامتا لا يتحرك الا ان المرأة بدات تخطو خطوات بطيئه و هى تتلفت خلفها خشيه من ان يتبعها حاول ان يوضح لها انه لا يستطيع تبين طريق العوده لقافلته.

"انت من قافله الريس قاسم ، هل تعرفين طريق العوده ؟ انا البرتو موظف البريد ، انا احمل رساله من الجنرال غوردون للخديوى اسماعيل".

حاول البرتو ان يطمئن المراة انه ليس احد قطاع الطرق او اللصوص و لذلك ذكر غوردون و تعمد ان ينطق ببعض الكلمات الايطاليه زياده فى الاطمئنان الا ان المرأة لم تنبس بكلمه فاستطرد البرتو و قد بدأ يشعر بالالفه و الونس:

"انا كنت تائه ، لم استطع تبين طريق العوده للخيام حتى وجدتك و انت ، انت كنت ، اقصد".

التفتت له الفتاه قائله:

"هل يمكن ان تسير فى صمت حتى نصل للقافله ؟".

كانت نبرتها توحى بالثقه انها تعرف طريق العوده فاستسلم البرتو و استطاع ان يسير بصمت لدقائق الا ان فضوله كاد يقتله ، كيف تعرف هذه المرأة طريق العوده بتلك المهارة و المكان يغلفه الظلام من كل اتجاه ؟ فسألها:

"كيف تعرفين طريق العوده ؟".

اشارت الفتاه بيدها الى السماء دون ان تتكلم فتعجب البرتو الذى لم يفهم ما الذى تقصده و استطرد فى الكلام:

"السماء ؟ هل تدلك السماء على الطريق ؟".

اثار غباء البرتو اعصاب الفتاه التى توقفت عن السير و اشارت بيدها لاحدى النجمات.

"هل ترى هذا النجم ؟ هو دليلى فى طريق العوده".

ابتسم البرتو و شعر بغبائه امام المرأة السودانيه و بدأ يحكى لها عن خططه تجاه هذا النجم الا انه لم يكن يعرف انه دليل الصحراء مما زاده جمالا و قيمه فى نظره.

سأل البرتو بعفويه:

"انا اعرف كل اهل السودان ، من اى قبيله انت ؟"

"انا لست من قبيله انا ابنه سمعان تاجر الحلى".

بدأ صوتها يخفت و انفاسها تتلاحق اثر السير فى رمال الصحراء مما زادها سحرا و انوثه.

رد البرتو و هو يشعر بالالفه:

"ابنه تاجر الحلى ؟ انه صديقى ، الا تدرين ؟ اننا نسهر سويا".

"ارجوك لا تخبر احدا انك رأيتنى او تحدثت معك و الا قتلنى ابى".

تغيرت نبرة دليله و امتزجت بالخوف الا ان البرتو بروحه المرحه و ابتسامته الواسعه طمئنها.

"لا تخافى ، لن اقول لاحد انى رأيتك".

"و انتى تقضين حاجتك".

اغتاظت دليله كالاطفال و قد اصبحت على سجيتها مع البرتو و كأنها تعرفه منذزمن.

"ابدا انك لم ترانى".

علت ضحكه البرتو:

"ما اسمك ؟".

هزت دليله رأسها بالنفى و انها لن تستطيع البوح باسمها ، بدأت تلوح لهم بعض الخيام ، طلبت منه دليله ان يسير فى الجهه الاخرى حتى خيام الرجال و حتى لا يراهم احد و قبل ان يفترقا سألها البرتو ان كان يستطيع رؤيتها مرة اخرى ، هزت رأسها بالنفى.

"اذا اشكرك على انقاذى اليوم و اعدك بانى ساضل الطريق غدا مرة ثانيه ، سانتظرك حتى تنقذينى اذا كنتى تملكين بعض الشفقه".

شعرت دليله بجسدها يرتجف و تسارعت نبضات قلبها بشده حين تركته و اتجهت لخيمتها و لكن هل كان ينبض قلبها ام يرقص ؟ لم تعد تدرى ، ما هذا الشعور الغريب ؟ انه شىء لم تختبره قبل الان ، احساس بالخوف المختلط بسعاده ، الدماء حاره تسرى فى جسدها و رعشه لذيذه تدغدغ مشاعرها ، انها تسمع موسيقى الصحراء و اصبح اللون الفضى للقمر له الف معنى مختلف و لكن ماذا لو كان رأها احد و هى اتيه مع هذا الشاب ؟ ماذا لو فلتت من الشاب كلمه لابيها ؟ انه اجنبى و الشاب الاجنبى لا يهتم لامر فتاه سودانيه ، و لكنها ليست سودانيه ، انها ارمنيه ، تسرى فى عروقها دماء اوروبيه ، كانت الافكار تختلط فى رأسها و تشعر بحماسه اكبر من ان تستطيع معها النوم تلك الليله فباتت طوال

الوقت الباقى من الليل بجوار الخيمه تنظر للنجوم ، رفعت رأسها للنجم اللامع و تذكرت كلمات البرتو فابتسمت و ارسلت قبله للسماء.

بدأ اليأس يدب فى قلب البرتو بعد ان اطلق الريس قاسم النفير الذى يؤذن بتحرك القافله ، مر يومان على لقائه بالفتاه ، انتظرها ليلتان و لكنها لم تأت ، كان الوقت يمر فى الليل بطيئا و تسائل البرتو ، اليس الوقت هو الوقت الساعه ستون دقيقه و الدقيقه ستون ثانيه ؟ لماذا اذا ساعات الانتظار تمر بطيئه و الوقت يطول بها حتى تبدو الثانيه ساعات و الساعه ايام ؟ هل الوقت شىء و الزمن شى اخر ؟ الوقت يتم حسابه بالساعات و الدقائق اما الزمن فيتم احتسابه بالمشاعر فزمن الانتظار يختلف عن زمن السعاده عن زمن الاحزان ، يطول او يقصر.

اشفق عيسوى على صديقه من طول السهر و الانتظار فبدأ يلاطفه عساه يستطيع ان يفرج عنه بعض ما هو فيه قائلا:

"عزيزى البرتو ساحر النساء يقع فى الحب من اول نظرة ، انك حتى لا تعرف شكلها"

قال البرتو بثقة:

"اؤكد لك انها لابد ان تكون ساحرة الجمال".

فكر البرتو ان يكون وراء اختفاء الفتاه سرا ، ربما يكون قد اصابها سوءا او انكشف امر لقائهم تلك الليله ، فكر انه ربما لو ذهب الى سمعان بايه حجه فيستشف منه اذا كان حدث شىء و لم يستجب لنصائح عيسوى و تحذيره.

"انت مجنون !! لو شعر ابوها بشىء لطارت رأسك".

"انا مستعد ادفع نصف عمرى ثمنا للقاء تلك الفتاة مرة اخرى".

اخذ عيسوى يضرب كفا بكف و هو يقول:

"لقد جننت يا البرتو ، ماذا اصابك ؟ سوف تدفع عمرك كله بتهورك ، تلك الساحرة اليهوديه قد اصابتك بمس فاطارت عقلك".

لم يلتفت البرتو لكلمات عيسوى و توجه لسمعان الذى تعجب من هذه الزيارة و خاصه ان القافله على وشك التحرك ، بدا البرتو مضطربا متلعثما حين فاجأه سمعان عن سبب الزيارة فاطرق مليا و خرجت الكلمات من فمه متقطعه:

"انه ، انه زفاف اختى ، انا سوف اسافر ايطاليا ، قريبا".

ظل سمعان مطرقا ، استطرد البرتو فى الكلام:

"هديه ، انا اريد هديه لاختى ، اظن انه .....".

ابتسم سمعان و قد بدأ يشم رائحه المال:

"لدى طلبك ، هل تريد سوارا ام قلاده ؟".

قام سمعان من مكانه و توجهه لصندوق كبير فاخرج منه صندوق ذهبى صغير:

"هذه الهديه كانت تملكها اميرة مغربيه ، صندوق موسيقى".

حاول ان يريه كيفيه تشغيله الا ان البرتو لم يبدى اهتماما فوقف تأهبا للمغادرة حين امسك سمعان بساعده.

"الم ينال اعجابك ؟ لدى هدايا اخرى ، سأريك اياها".

ابتسم البرتو و هو يسحب ساعده من يد سمعان.

"بلى ، لقد اعجبتنى جدا ، ساشتريها".

التفت سمعان يعد نقوده مبتسما و يشعر بانه اتم صفقه ممتازة ، رد التحيه لالبرتو الذى عاد الى خيمته حيث كان عيسوى فى انتظاره متلهفا

وجلا يخشى ان يكشف سمعان امر البرتو او يستدرجه فى الحديث او ان يندفع هو كعادته فى الكلام.

القى البرتو العلبه الموسيقيه من يده فلقفها عيسوى و هو يضحك و يتسائل عما حدث.

بدا على البرتو بعض الارتياح و قد اطمئن انه لم ينكشف امره او امر الفتاه و الا كان سمعان اتخذ موقفا مغايرا ، ابتسم لعيسوى بغيظ:

"الوغد ، باعنى الصندوق الموسيقى بثلاثه اضعاف ثمنه لولا ابنته كنت شكوته إلى الحكمداريه".

انفجر عيسوى ضاحكا:

"الحب اصبح مكلف جدا ، كل هذا المبلغ و انت حتى لم ترى وجهها و فى النهايه قد تكون شبه ابوها".

اندفع البرتو فى تحد يقول:

"ان حدسى لا يخيب ، انها جميله ، لا يمكن ان يكون هذا الصوت الا لفتاه جميله".

حاول البرتو ان يواسى نفسه ، سرح بخياله فى تلك الفتاة التى عشقها من قبل ان يراها ، يتمنى لو يراها مرة واحدة ، مرة واحده تكفى ليذهب لطلب يدها من ابوها اللص ، لماذا لم تأت ؟ قد تكون مريضه ، انتبه على صوت عيسوى يقول:

"هيا بنا للسوق قبل تحرك القافله ، اريد ان اشترى قرنفل لاسنانى التى تؤلمنى منذ يومين".

فكر البرتو ، ربما يراها فى السوق او يمر بجوار خيمه الحريم فيطمئن على اخبارها ، قام عيسوى بشراء قطعتين من البسبوسه لصديقه و

القرنفل لاسنانه ، عندما رجعا من السوق كان العبيد قد جمعوا الخيام و تم تجهيز الركائب للانطلاق فى الطريق و خاب كل امل لالبرتو فى رؤيه فتاته مرة اخرى.

مرت القافله من نقطه التفتيش الاولى التى اقامها الخديوى اسماعيل بناءا على طلب غوردون لمراقبه الطريق و لتفتيش القوافل لمنع تجارة العبيد و قد اقام الخديوى عده نقاط تفتيش على الطريق بين مصر و السودان لحمايه القوافل ايضا و التى كانت تتعرض للصوص و قطاع الطرق مما كان يعرض التجارة بين البلدين و الارواح للخطر ، الا ان وجود تلك النقاط لم يمنع تجارة العبيد التى لم تتوقف يوما و قد لجأ التجار للحيل و الرشاوى لاتمام صفقاتهم و تجارتهم الرائجه بين البلدين.

انضم للقافله تاجران من شمال افريقيا و قد اسروا حوالى مائتان من العبيد الرجال الاصحاء الاقوياء من جنوب نهر الكونغو و قد وضعوا الاغلال فى ايديهم عاقدين العزم على ترحيلهم من الاسكندريه لاوروبا عن طريق البحر المتوسط ، كان العبيد يسرون بجوار القافله حينما نظر الفتى عثمان بتعجب لاولئك العبيد ، كم كانت اجسامهم قويه صلبه و عددهم كبير ، كيف يستطيع اثنان فقط السيطرة على اولئك العبيد ؟ لو اتحد هؤلاء العبيد سويا و حطموا تلك الاغلال لا يستطيع مائه رجل السيطرة عليهم ، التفت لابيه قائلا بدهشة:

"لماذا لا يحطم هؤلاء العبيد اغلالهم ؟ الم يلتفتوا الى مدى قوتهم و قله حيله التجار ؟".

ابتسم الاب من ذكاء ابنه و براءته و حاول ان يفهمه ان العبرة فى الحياة ليست بالقوة الجسديه و انما هناك اشياء اخرى اهم قائلا:

"لو التفت الجمل لقوته ما كان استطاع احد اعتلائه ، اليس كذلك ؟".

لم يفهم عثمان ماذا يقصد ابوه و لكنه ظل يتابع العبيد فى سيرهم مكبلين و يتخيل ان يقوم احدهم بفك اغلال اصحابه فيقوموا بهجوم مباغت على التجار فيذبحوهم و يفروا هاربين.

اما دليله فكانت تشفق على اولئك الرجال الذين ربما تركوا خلفهم زوجات و ابناء لن يتمكنوا من رؤيتهم مرة اخرى ، تذكرت امها فدمعت عيناها ، تسائل عيسوى ، كيف تتم هذه الصفقات الكبيرة مع وجود صيحات محاربه الرق و محاولات تضييق الخناق على التجار ؟ بالتاكيد ان هذه التجارة مربحه بصورة كبيرة حتى يتحمل التجار كل تلك المخاطر ، كلما زاد الامر صعوبه كلما ارتفع السعر و لكن تجارة العبيد لم تكن يوما تحوز اهتمام عيسوى ، احيانا كان يضطر لشراء العبيد لمعاونته فى التجارة و الاطيان و للقيام بخدمته و اهل بيته و لكنه لم يفكر ابدا فى المتاجرة بالعبيد لعشقه تجارة النوق التى ورثها ابا عن جدا و لم يكن ليرضى بها بديلا ابدا.

تفحصت سعيده فى وجوههم ، ربما يكون احدهم من قريتها فيخبرها عن احوال جدها حتى وقعت عيناها عليه ، لم تصدق نفسها ، كيف لمثله ان يقع فى الاسر ؟ اهتاجت الذكرى فى قلب سعيده حتى كادت تفقد وعيها و تسقط من فوق الجمل التى تقتسمه مع الفتاه الاخرى التى تشبست بها خشيه السقوط.

لم تكن سعيده فى ذلك اليوم الحار تتخيل ما يمكن ان يحدث و يقلب حياتها رأسا على عقب ، اعتادت الاستحمام فى النهر فى مثل تلك الايام الحارة مع صديقاتها الا انه فى ذلك اليوم ذهبت الصديقات مبكرا و تركنها وحيده فخلعت ملابسها و نزلت النهر تطفئ لهيب الشمس فى جسدها و رأسها حين سمعت صوتا خلف الاشجار العاليه ، صوت اقدام فوق الحشائش الجافه ، حاولت تسترق السمع الا انها لم تتبين مصدر ذلك الصوت ، حاولت أن تتجاهله ، للحظات شعرت بان هناك

من يراقبها ، سرت قشعريرة فى جسدها ارغمتها على الخروج من النهر ، لم تجد ملابسها حيث تركتها ، استولى الخوف عليها فقررت ان تعدو بسرعه للقريه ، فجأة باغتها وحش من الخلف ، كتم انفاسها حتى كادت تفقد الوعى ، استطاعت ان تتخلص من قبضته و بدات تجرى مشوشه الذهن حتى انها نسيت طريق العوده ، استطاع الهجوم عليها من الخلف ، حاولت التملص منه فامسك بقدميها و اخذ يجرها على الحشائش الجافه التى كانت تسلخ جلدها و الشمس الحارة اعمت عينيها حتى انها لم تستطع تبين وجهه فى البدايه ، بعد فترة خارت قواها و لم تستطع الاستمرار فى المقاومه ، صدرت منها صرخه واهنه املا فى ان يسمعها احد و يأتى لانقاذها ، توسلت للارواح الطيبه ان تمد لها يد النجاه الا ان كل محاولاتها باءت بالخيبه حين ارتمى عليها ذلك الوحش ، كان لعابه يسيل فوق وجهها كحيوان مفترس يحاول استكشاف فريسته قبل التهامها ، لا تعرف كم من الوقت مر بها و هى بين يديه و لكنه لم ينتهى منها الا بعد ان انفجر شلال الدم بين فخذيها ، ابتسم لها ابتسامه شامته و هو يلقى اليها بملابسها و يرحل و تساءلت سعيده ، لم كان يحمل لها كل هذه الكراهيه ؟ انها حتى لا تعرفه ، تحاملت على نفسها و زحفت تجاه النهر.

اغتسلت و طهرت جروحها ، بكت و هى تنظر للسماء ، اين انت ايتها الارواح الطيبه ؟ كيف تقبلى ان يحدث كل هذا و لا تمدى لى يد العون ؟ اتخذت طريقا مختلف للقريه عن الطريق المعتاد ، فى الطريق الطويل اقامت حوار شديد اللهجه بينها و بين نفسها ، حاولت كطفله فى الثالثه عشر انذاك ان تفهم ما الذى حدث و لماذا هى ، انها لم ترتكب خطأ فى حق احد ، تساعد جدها فى اعمال المنزل و تساعد اصدقائها و اقربائها كلما احتاجوا للمساعده ، تصلى كل ليله للارواح الطيبه ، لماذا كان يحمل لها كل هذا الكره و هى لم تؤذيه او تؤذى اى انسان ؟ لم

تستطع الهرب و لم تستطع الدفاع عن نفسها ، هل لانها ضعيفه ام لانها فتاه ؟ هل لو كانت ذكرا ما كان حدث لها ما حدث ؟ نعم هذا الانتهاك الجسدى لم يكن يحدث لها لو كانت ذكرا بل ان هذا الشاب ما كان يفكر فى انتهاكها لو لم تكن انثى ضعيفه ، لم تلم سعيده هذا الوحش المغتصب بقدر ما كانت تلوم ضعفها و جنسها و قله حيلتها فى الدفاع عن نفسها ، لماذا لم تنقذها الارواح الطيبه ؟ و هل انقذت الارواح احدا من قبل ؟ ربما توسل ابيها و امها كثيرا للارواح قبل ان يتم اسرهم و بيعهم فى سوق العبيد ، الارواح لا تنقذ احدا.

اظلمت السماء حين وصلت سعيده للقريه و لم تكن تدرى ان كل هذا الوقت مر عليها و هى فى الطريق مستغرقه فى افكارها الا حين رات جدها يقف امام الكوخ و على وجهه علامات قلق استبد به ، احتضنها الجد بحنان و هو يسألها عما حدث ، لم تستطع سعيده اخباره و لم يلح هو عليها بالسؤال و لكن بخبره رجل تعدى التسعين من عمره استطاع ان يفهم ان حفيدته و دره قلبه تمر بازمه عنيفه عصفت بطفولتها و حولتها لكائن حزين تنضح المرارة من كلماتها و تملأء الدموع عينيها.

لم يطل الحال بسعيده على هذا المنوال ، حاولت ان تخرج من ازمتها سريعا ، كانت فتاة قويه لديها عزيمه و اصرار الا تنتهك مرة اخرى فقررت الانضمام لصفوف المقاتلين و تعلم فنون القتال و الصيد و رغم ان هذا الامر لم يكن يلقى قبولا لدى الجد و الكثيرين من اهل قريتها حتى انها فقدت العديد من الصديقات و فر منها العرسان الا انه مع اصرارها استسلم الجميع لرغبتها و باركوا اختيارها ، بذلت مجهودا مضاعفا حتى تستطيع اللحاق بركب الفتيان فى مهاره استخدام السلاح و صيد الحيوانات المتوحشه و تسلق الاشجار العاليه ، فقدت الكثير من انوثتها فاصبحت تتحدث كالفتيان و ترتدى ملابسهم حتى طريقه مشيتها

اختلفت كثيرا الا انها كانت تشعر بالرضاء التام عن نفسها و لكنها لم تنسى يوما هذا الوجه القبيح و هذه الانفاس الكريهه و النظره الشامته.

نظرت اليه سعيده ، حاولت ان تبادله نظره الشماته الماضيه ، ها هو اسير مكبل اليدين و القدمين ، سيباع فى اقرب سوق للعبيد ، ليكمل حياته عبدا ، لن يشعر بطعم الحريه بعد الان ، انتهكت حريته مثلما انتهك هو طفولتها.

و لكن هل يشمت الجريح فى الجريح مثله ؟ هى ايضا فقدت حريتها و ستباع فى سوق الجوارى ، كيف تشمت فيه و هما مذبوحان بنفس النصل يعانيان نفس الوجع و يحملان نفس الجرح ، لا موضع هنا للشماته و انما هو موضع الشفقه ، نعم انها تشفق عليه مثلما تشفق على نفسها ، اشاحت بوجهها عنه و اطلقت بصرها فى الصحراء ، كان اللون الاصفر يكسو الكون ، حتى السماء تحول لونها للاصفر مما ينذر بهبوب عاصفه قريبا حين اطلق الريس قاسم نفير التوقف و التخييم.

،و،

" جنوب نهر الكونغو "

توافدت البعثات البلجيكيه على الكونغو و قد تم عقد المعاهدات مع زعماء القبائل من اجل نشر الحضارة و الدين المسيحى.

و رغم ان تلك البعثات لم تلق مقاومه من الافارقه او من التجار العرب المستوطنين فى تلك المنطقه و قد كان العديد من التجار العرب يقومون برحلات تجاريه فى الكونغو و استوطنوها و كان حسن تعاملهم مع الافارقه سببا كبيرا لانتشار الدين الاسلامى فى بعض المناطق و قد شكل التجار العرب مصدر امان للبعثات الغربيه فى مناطق كثيرة و كانوا يساعدونهم فى التوغل فى اماكن كثيرة من افريقيا نظرا لخبرتهم فى عبور تلك المناطق النائيه و الموحشه.

و رغم ان البعثه البلجيكيه قامت اساسا على التبشير و الحضارة الا انه سرعان ما تخلى ليوبولد عن تحضره فى التعامل مع اهالى الكونغو و استعرت رغبته المحمومة فى استغلال اشجار المطاط التى تتواجد بغزارة فى تلك المنطقه مما دعته لاستخدام العنف فى تسخير السكان فى استخراج المطاط ، يتم اقتيادهم بالسياط و عن طريق التهديد بقتل الاطفال او اغتصاب النساء و يستخدمون ابشع الوسائل فى العقاب كتقطيع الايدى او القتل احيانا مما دفع الاهالى لمقاومتهم و الثورة ضدهم.

نال المرض و الوهن من جد سعيده بعد اختطافها على يد رجال الزبير ، شعر بالحزن الشديد لفقد حفيدته و اخر ما تبقى له فى الحياه بعد ان فقد الابناء و الاحفاد ، معظم الوقت يقبع داخل الكوخ و يقوم بعض شباب القريه على خدمته فيطهون له الطعام و يغسلونه و يعرف منهم ما يدور فى الخارج ، كيف ان البلجيكين يتعاملوا بقسوة مع الاهالى و كيف قامت الثورة ضدهم و كيف ان حميد التاجر العربى الذى اتى

افريقيا لبيع الملح فكون دولة اصبح ملكا عليها و يملك الالاف من العبيد و الاموال ، بعد ان اتفق مع الانجليز على تسهيل مهمه البلجيك فى الكونغو اصبح يحاربهم بعد ان انقلبوا عليه و يؤلبون الاهالى عليه و على بقيه التجار العرب ، كان الجد يستمع للشباب و يبتسم قائلا:

"الحريه لن تأتى لاوطاننا الا بدماء ابنائنا ، سيعرف شعبنا يوما قيمه تلك الارض التى يتقاتل من اجلها الغرب و الشرق و حتى ياتى ذلك اليوم سنظل هكذا تتقاذفنا الايدى".

بدا الشباب الكونغولى فى تكوين خلايا فيما بينهم لمقاومه الاستغلال البلجيكى لخيراتهم و يتخذون من كوخ الجد مقرا لاجتماعاتهم لوضع الخطط و الاختباء عن عيون البلجيكيين او لتداوى المصابين جراء القتال و قد انقسم الشباب فيما بينهم ، منهم من انضم للبلجيك فى حربهم ضد حميد و التجار العرب و منهم من انضم للتجار العرب الا ان احيانا تكون ضرباتهم للمصالح البلجيكيه موجعه مثل ذلك اليوم الذى خطط فيه بعض الثوار لتفجير مخزن من اكبر مخازن التى كان يستخدمونها البلجيك فى تخزين الاسلحه ، بعد ان فجر الشباب المخزن و تصاعدت السنه اللهب الى السماء سادت حاله من الذعر بين البلجيكيين و اتباعهم من الكونغولين و بدات السنه اللهب تمتد الى غابات المطاط فاصبح المكان جحيما يفر منه الرجال و النساء ، عاد الشباب الى الجد يحملونه على ترك المكان الذى ستمتد اليه النار فى ثوانى معدوده الا ان الجد اصر على البقاء قائلا:

"لن اترك ارضا دفنت بها كل احبابى و تمنيت العمر كله ان اموت و ادفن بها ، اتركونى و ارحلوا فمازال العمر امامكم ، اما انا فقد ادرت ظهرى للحياه بعد فقد الاحبه".

لم يستطع الشباب امام اصرار الجد الا ان يتركوه و يرحلوا و ما هى الاثوانى و التهمت النيران الاخضر و اليابس.

تطورت الامور بعد هذه الحادثه و انتهج البلجيكين اسلوب اخر فى التعامل مع الكونغولين اشد قسوة و سطوة و رغم ان الملك ليوبولد كان ينتهج سياسه بريطانيا فى تحريم الرق و محاربه تجارة العبيد الا انه لم يستمر طويلا فى اتباع هذه السياسه مع اهالى الكونغو ، ساهم التقدم الحضارى و العسكرى للاوروبيين على الافارقه فى نجاحهم فى استغلال افريقيا و الاستيلاء على خيراتها بسهولة و يسر و بدأت الدول الاوربيه فى تقسيم الوليمه الافريقيه.

،‘

" درب الأربعين "

إستبد الشوق بالبرتو لرؤيه فتاته مما جعله يتخلى عن حذره فتوجهه ناحيه خيام الحريم و بدأ يتلفت حوله عساه يراها او يلمح طيفها حتى استوقفه احد العبيد المكلف بالحراسه و سأله عن بغيته.

توتر البرتو و لم يستطع تبرير وجوده بالقرب من خيام الحريم في حين استطاع عيسوى انقاذه فتدخل ليوضح للحارس انه ايطالى و لا يفهم العربيه لذلك لم يرد على تساؤلاته ، سحبه عيسوى من يده و دخلا خيمتهما و هو يصب عليه اللعنات.

"قد تدفع حياتك ثمنا لتهورك يا البرتو ، الا تستطيع السيطرة على نفسك".

شعر البرتو بلهيب الشوق يحرق فؤاده و قد يأس من رؤيه من ملكت عليه نفسه و خطفت لبه فاجاب البرتو و هو شارد:

"و هل يلام المحموم على حمى اصابته ؟ احبها كما لم احب من قبل ، ساعدنى يا صديقى".

زحف الليل على الصحراء و عيسوى مازال يهدىء من روع صديقه و يفكر فى حيله لمساعدته و فكر ربما لو خرجا من خيمتهما و انضما لباقى التجار فى سمرهم يخفف من وطأة حزن صاحبه.

كانت الجلسه كالعاده بين الرجال شرب الشاى و تدخين الشيشه و حديث السياسه حتى قام الفتى عثمان بترديد بعض الاغانى السودانيه الشهيرة و انضم اليه شباب الحاضرين فقاما بالرقص فى حلقات على انغام الدف مما اضفى جو من البهجه و المسرة ، نظر حسان لابنه باعجاب ، لقد كبر الطفل عثمان و اصبح فتى بافعا ، انه يتذكر يوم ولادته كان طفلا مليحا له ابتسامه مميزة الا ان زوجته اصرت ان تعيش بين اخواتها فى

النوبه فترك لها عثمان ليتربى بين اخواله و قضى هو معظم الوقت فى السودان ، كان يراهم بضعه ايام خلال عبوره طريق مصر و السودان للتجارة الا انه بعد وفاه الزوجه اصطحب اولاده للبقاء معه فى السودان و رأى انه ينبغى ان يعلم ابنه اصول التجارة حتى يقوم بمساعدته بعد ان تقدمت به السن و لم يعد يقوى على مشاق الطريق.

انتصف الليل حين انسل كل واحد لخيمته تحسبا لاستكمال الرحله فى اليوم التالى ، ظل البرتو مستيقظا بجوار خيمته حين رأى شبحا فى الظلام يقترب منه ، وقف البرتو يتبين لمن هذا الخيال الذى يبدو فى ضوء القمر لامرأه ، اقتربت منه حتى استطاع تبين وجهها ، لم يخطىء حدسه ، انها هى ، حوريه من حوريات الجنه الموعوده ، ذلك الوجه المستدير كبدر الصحراء فى الليالى المظلمه و بحور العسل التى تنسكب من عينيها و الشفتان المكتنزتان التى تحض على الخطيئه بلا اى وازع من ضمير ، بلا وعى اقترب منها البرتو و ضمها الى صدره ، انسدل الثوب من فوق راسها فتطاير شعرها الناعم مع نسمات الليل ليلامس وجهه البرتو الذى كاد يفقد وعيه من فرط النشوة ، همست بعصبيه:

"هل جننت ؟".

كاد البرتو يعتذر عن تصرفه الغير لائق ظنا منه انها غضبت لاندفاعه نحوها الا انه اكتشف غباؤه حين استطردت فى حديثها:

"كيف تحوم حول خيام الحريم !! الا تخشى ان يقتلوك اذا شكوا بامرك ؟".

اقترب البرتو من اذنيها و هو يهمس بهما:

"لم افكر الا فى رؤيتك حتى لو كان الثمن روحى ، قد تتعجبين لو قلت لك بان اقصى امنياتى ان اكون قتيلك".

لم تكن مشاعر دليله تقل اندفاعا عن البرتو ، تملكتها سعادة لم تشعر بها من قبل ، تمنت لو تصرخ باعلى صوتها لتخبره انها ايضا اشتاقت لرؤياه و انها تتمنى لو يحتفظ بها للابد بين ذراعيه ، ابتسمت دليله فى حياء:

"ارجوك ، لن اسامح نفسى ان اصابك مكروه بسببى".

اعتدل البرتو فى وقفته و اتخذ مظهر جادا.

"هل تشفقين ام تخافين على ؟".

لم ترد دليله حين استطرد البرتو:

"هل اطمع ان اعرف اسمك ؟ ام ستبخلين على قتيلك ؟"

اطرقت دليله راسها حين قالت:

"اسمى دليله".

ابتسم البرتو:

"لقد ادركت الان السر ، انت دليله التى جردت شمشون من اعتى اسلحته".

ابتسامته المشرقه شجعتها على الابتسام و كأن الحياه توقفت فوق شفتيه نظرت اليه بانبهار ، اطول منها بحوالى نصف المتر و عيناه اللامعتان كفيلتان بان تمحو من حياتها ايه احزان مضت ، بين الحين و الاخر تنظر للسماء و كأنها تشكر الرب على تلك الهديه التى عوضها بها بعد سنوات اليتم و الشقاء مع زوجه الاب الماكرة.

تذكرت دليله فجأة انها تاخرت و ربما تبحث عنها كاتيا و تشك بغيابها ، كانت تصارع رغبتها فى البقاء و لكنها اضطرت ان تترك البرتو على

وعد باللقاء فى اقرب فرصه و لم يفوت البرتو فرصه وداعهما حين اختطف قبله من وجنتها التى اشتعلت من حمرة الخجل.

انطلقت دليله لخيمتها حين وجدت الجميع مستيقظين فى حاله قلق و قد ارسلت كاتيا بعض العبيد للبحث عنها ، جلست الست سكينه فى الخيمه و قد استبد بها القلق حتى انها انفجرت فى البكاء حين دلفت دليله للخيمه فارتمت فى حضنها:

"لا تبكى يا امى ، انا بخير".

كادت كاتيا ان تنفجر من الغيظ بسبب تصرفات دليله التى اصبحت غريبه فى الاونه الاخيرة و قد احتار امرها فى تفسير تلك التصرفات ، بعد لقائها الثانى بالبرتو تقضى معظم الوقت ساهمه عازفه عن الطعام قليله الكلام على غير العاده تتحاشى اى شجار معها و قد تتفاجىء بها و هى تبتسم او تحادث نفسها و قد بدأت كاتيا تظن انه ربما مسها جن من ساكنى الصحراء و هو السبب فى غرابه اطوارها او أن يكون قد خف عقلها من تأثير الصحراء و السفر الطويل و بدات كاتيا فى مراقبتها من بعيد فى محاوله لاكتشاف ما اصابها.

لم يكن قلب دليله الصغير يحتمل هذه السعاده وحده فباحت بسرها للست سكينه التى لم تخفى خوفها و قلقها البالغ على دليله:

"تقولين ايطالى يا دليله !! و هل ابوك يوافق على زواجك من اجنبى ؟".

"يا بنتى اخشى ان ينكشف امرك لا قدر الله ، سيقتلك ابوك يا دليله ، نحن العرب لنا عادتنا يا بنيتى".

"عدينى يا دليله الا تذهبى لملاقاته مرة اخرى ، اخشى عليكى من بطش كاتيا يا حبيبه قلبى".

جف ريق الست سكينه من اسداء النصائح و لكنها تعرف ان سهام الحب لا تخطىء و قد اصابت تلك السهام قلب دليله فى مقتل و انه لن يجدى معها النصائح او الكلام فآثرت الصمت و الدعاء ليل نهار الا يريها الله مكروها فى الفتاه.

هل حقا نحن من نرسم خطواتنا فى الحياه ام ننتقى فقط من بين الخيارات المتاحه لنا ؟ نسير على خطوات مرسومه مسبقا و لا نملك رفاهيه الاختيار ، تلك الاقدار التى تصيب الانسان هل يملك تغييرها ؟ هل يملك حق القبول او الرفض ام انه قد فرضت عليه اقدار و وجب عليه الموافقه و الصبر و التعايش ؟ احيانا نظن فى انفسنا القوة و تأخذنا العنجهيه فنتوهم باننا من يملك دفه حياته فنتحول من الفقر للغنى ، من الضعف للقوة و من الشقاء للسعاده و لا ندرى بان هذا التحول هو ايضا من الاقدار المرسومه التى نسير عليها بلا حول منا و لا قوة.

هل كانت دليله تسير نحو السعاده المرتقبه و التى طالما كانت تحلم بها ام انها كانت تساق نحو حتفها و هى لا تدرى ؟ لم تشغل دليله نفسها بالاجابه على تلك التساؤلات ، كان المجهول يجذبها و تسير نحوه بخطى مسرعه فى ظل قلق الست سكينه و حيرة كاتيا و سكرتها بالحب ، تعددت القاءات بينها و بين البرتو كلما توقفت القافله لسقيا الابل حتى باتت تشعر بالامتنان لتلك الابل التى لولاها ما كانت توقفت القافله و ما كانت ترى البرتو ، حتى تلك الليله التى اعترف فيها البرتو لدليله برغبته فى الزواج منها و انه سوف يتقدم لخطبتها من ابوها و رغم سعادتها الا انها لم تعرف مصدر ذلك الشعور الغامض الذى انتابها مزيج من القلق و الخوف ، كلمات الست سكينه كانت ترن فى اذنيها.

"هل يوافق ابوك على تزويجك من اجنبى ؟".

لم تكن تعرف هل يقبل ابوها ان يزوجها من ايطالى و العداوة بين السودانيين و الانجليز لا تخفى على احد بعد ما استولوا على خيرات بلادهم و استعمروا اراضيهم ، و لكن البرتو ليس انجليزيا ، انه مجرد موظف ايطالى ليس له شأن بالسياسه و هو يهودى مثلها.

افاقت من شرودها على قبله طبعها البرتو على جبينها و هو يهديها صندوق الموسيقى ، كانت هذه اول هديه تتلقاها دليله فى حياتها ، غمرتها سعادة كبيرة و اكثر ما اسعدها انها تعرفت من خلال البرتو على البدايات ، فمعه كان اول لقاء و اول قبله و اول عناق و اليوم اول هديه ، ضمتها دليله لصدرها و كانها تريد ان توثق هذه اللحظه فى قلبها مثلما نقشت فى ذاكرتها ، اللحظات كانت تمر بين العاشقين فى صمت بليغ ، لم يكن بينهما احاديث تذكر و لكن عيناهما تبوح بكل ما يحمله قلبيهما من لوعه و شوق.

البرتو و هو الشاب صاحب التجارب النسائيه العديده يجد نفسه امام دليله كصبى مراهق بدأ يسبر اغوار رجولته ، تلك الفتاه على الرغم من برائتها ذات شخصيه طاغيه انسته كل تجاربه السابقه ليبدا معها من جديد ، لمستها تشعل عقله و قلبه ليالى و اياما ، ابتسامتها لا تفارق مخيلته ، صوتها الهامس يرن باذنيه ، حتى فى احلامه كان حضورها قوى ، و اذا تمنعت ذات ليله و لم تاتيه فى منامه يستيقظ مكروبا يحمل هموم الدنيا بين جنبيه ، التفت البرتو لدليله و قد شعر بما انتابها من قلق حين فاتحها فى موضوع الزواج ، ربت على يديها بحنان و هو يقول:

"لا تخشى شيئا يا حبيبتى ، انت لى ، لن يفرقنا الا الموت".

سمعا اصوات همهمات تقترب من القافله رويدا رويدا مما جعلهما يتسمران فى مكانيهما حين امتدت اليهما يد تجذبهما لداخل الخيمه.

سادت حاله من الهرج و المرج فى استقبال جماعه من المتصوفه القادمين من شمال افريقيا عبر الصحراء السودانيه المصريه فى رحله الى وادى عيذاب فى اقصى جنوب مصر و منه الى ارض الحجاز من ميناء البحر الاحمر لاداء مناسك الحج ، و من عاده المتصوفين وقتها التوجهه لحميثرة قبل رحله الحج للتبرك بهذا المكان حيث دفن فيه قطب الاقطاب ابو الحسن الشاذلى المغربى و هو من اكابر المتصوفه و منشىء الطريقه الشاذليه ، و قد حظى التصوف بقدر كبيرا من الاحترام و الاهتمام لدى الخلفاء العثمانيين حتى ان بعضهم و منهم الخليفه عبد الحميد اعتنقوا الفكر الصوفى و كانوا يراسلون مشايخ الطرق فى مصر و السودان.

انضمت جماعه المتصوفه للقافله فى جو من الترحاب و سط تهليل و تكبير منهم و بدأ العبيد فى تجهيز الطعام و المشروبات الساخنه حين جلس المتصوفه فى حلقه التف حولهم الجمع من اهل القافله من رجال و نساء و بدأوا فى ترديد الاوراد و التسابيح مما اضاف حاله روحانيه على الحاضرين.

وقفت سعيدة و قد ذكرها ذلك المشهد باسعد ايام حياتها حين التقت بالشاب السودانى هارون الذى تخلى عن الامارة و الثروة و قرر ان يخلع عباءة الدنيا و ينضم لصفوف الزاهدين كانت هى فى ذلك الوقت من المقاتلين الاشداء و قد بلغت السادسه عشر و قليل ، فى احدى رحلات الصيد التى كان يخرج فيها فتيان القريه قابلته يجلس بجوار النهر فى سكينه يتمتم بكلمات عرفت فيما بعد انها ذكر لله ، نبهته ان المكان قد يكون خطرأ حيث يمتلىء النهر فى ذلك الوقت من العام بالتماسيح الضخمه الا انه لم يرد عليها سوى بابتسامه الواثق من نفسه او ممن يحميه مما اثر فى نفسها و تساءلت من اين ياتى هذا الفتى بكل

هذه السكينه و الثقه ؟ كيف يحتمل الوحدة فى ذلك المكان الموحش المللىء بالاخطار ؟ ما سر سعادته و قد ترك كل متاع الدنيا ؟

بدات تتودد اليه و تقترب منه ، تعارفا و قد قص عليها كيف تربى فى بيت عمه الزبير صاحب السلطه و السطوة و الاموال ، اهتم عمه بتحفيظ ابناءه القرأن و قد اتم حفظه فى سن مبكرة و درس علوم الدين على يد شيخ مخضرم فى السودان و بدأ يهتم بمعرفه رجال الله و الاولياء و اصبحت مجالسهم احب اليه من ابيه و امه ، يقضى وقته فى خدمتهم و القيام على شئونهم من تنظيف و اعداد الطعام و اطعام دوابهم و ضاق عمه باسلوب حياته و ألح عليه فى الانضمام لابنائه فى تجارتهم و التى كانت من بينها تجارة الرقيق الا انه ابدى اعتراضه على تلك التجارة و الاموال التى تكتسب منها و دخل فى نزاعات متكررة مع ابناء عمومته من اجل ان يتركوا امر تلك التجارة دون جدوى حتى اثر الابتعاد و الخلوة بنفسه فى ذلك المكان على ضفاف النهر حيث رأته.

اما هى فلم تستطع البوح بما حدث لها و حول حياتها ذلك التحول الرهيب من الفتاة المدللة للمقاتله الشرسه و لكنه فطن من تلميحاتها بان حياتها كان بها من المصاعب و التحديات ما جعلها دائما فى حاله قلق و خوف من المجهول القادم و بدأت تربط بينهم علاقه غريبه لم تكن صداقه حيث كان يسودها نوع من الاحترام الزائد لا يكون عادة بين الاصدقاء و ليس علاقه رجل بامراة فلم يكن بينهم ما بين العاشقين من لوعه و رغبه و شوق بل هو نوع مختلف من العلاقات لم تألفه سعيده من قبل ، هل هى الالفه التى قد تجمع بين نقيضين ؟ هل هو الشعور بالنقص و البحث عن الكمال ؟ كل منهم يرى فى الاخر ما يسد به النقص فى ذاته ، سعيده التى فقدت كل ايمان بالالهه و الارواح الطيبه

و وجدت فى هارون اليقين التى تبحث عنه ، الايمان التى تفتقده ، الثقه بوجود قيم تنظم الكون كالعدل و الرحمه و الانسانيه.

بدأت ترى الدنيا بعيونه ، تعددت اللقاءات بينهما و كل لقاء كان هديه من السماء ، عرفت ان للكون ربا و ان هناك حياة اخرى مما بعث فيها الامل بان ترى والديها يوما و أنه يوما ما سيقتص الله من الوغد الذى دمر حياتها ، سمعت منه قصه الخليقه و عرفت الانبياء ، انار الايمان قلب سعيده و تحولت لشخصيه مختلفه ، اصبحت ابتسامتها لا تفارقها و لم تكن تمل الجلوس بين يدى هارون بالساعات تسمع اذكاره و اوراده و تسابيحه ، و رغم انها لم تكن تفهم الكثير مما يقوله الا ان صوته الرخيم اثناء تلاوته القران كان ينفذ الى قلبها فتسيل دموعها و تشعر بنوع من الراحه و السكينه تملأ قلبها.

اعتادت على وجوده فى حياتها و كانت هى الاخرى تساعده على تعلم العديد من المهارات التى كان يفتقدها كاشعال النار و تسلق الاشجار لاقتطاف الثمار بسهوله و صيد الاسماك من النهر و لم يكن هارون سريع التعلم فقد كانت تربيته المرفهه بين العبيد المكلفين بخدمته لم تتح له الاعتماد على النفس فى اى وقت.

تذكرت ذلك اليوم الذى انزلق فيه الى النهر اثناء محاولته صيد السمك ، استشعرت الخطر بحسها القتالى و بالفعل لاح لها وجود تمساح من التماسيح الضخمه ، التقطت رمحا كانت تركته على الارض و انطلقت و قد تملكها الذعر و قفزت فى الهواء و بكل قوتها رشقت الرمح فى ظهر التمساح الذى انسحب و غاص فى الماء ، وقف هارون مذهولا مما حدث ، نظر اليها باعجاب شديد و ابتسامه تحمل الف معنى ارتسم على وجهه ، مدت اليه يديها تساعده على الخروج من النهر ، التقط يديها ، و تلك كانت المرة الاولى التى يتلامسان ، فى تلك اللحظه حين قرر هو ان يسحب يده قررت سعيده ان يكون هو رجلها ، هل يمكن ان

يتبدل حال المرء بين ليله و ضحاها من لمسه ؟ هذا ما حدث لسعيده بدون رغبه او اراده منها ، هذا المكان و ذلك النهر الذى شهد اغتيالها منذ ما يقرب من ثلاث سنوات حتى حملت له فى قلبها كراهيه شديده اصبح هو احب الاماكن الى قلبها التى تقضى فيه معظم اوقاتها مع معلمها و مرشدها ، و لكن كما يقولون ان المرأة قرينه الخطيئه لا تعرف سعيده متى بدا يتحول شعورها تجاه معلمها ، متى كانت اول مرة تنظر له نظرة انثى لرجل ، هل يمكن للمسه يد ان تقلب حياه انسان رأسا على عقب ، هل يمكن لنظرة عين ان تحولها من اشقى انسان على وجهه الارض لاسعد امراة ، هل يملك هارون قوة سحريه على تحويل قلبها من الكراهيه للحب بكل سهوله و يسر ؟

كيف يكون الحب الذى يرتقى بالانسان ليصل به لدرجه الملائكه هو نفسه الحب الذى يشعل بداخله رغبه تهبط به لجحيم شيطانى ، كل يوم يمر تتبدل من حالة لحاله مختلفه و بدا عقلها و قلبها يضعاه فى قالب جديد و اصبحت نظرتها للحياة تختلف و نظرتها لنفسها كانثى تأخذ منحى اخر ، هكذا هى المرأة دائمه التقلب من النقيض للنقيض ، مثلما حقدت على نفسها يوما كونها امرأة بسبب رجل اصبحت اليوم تهوى كونها امراة بسبب رجل اخر ، تقضى الايام تفكر كيف يمكن لمن هو مثله يسبح فى ملكوت السماء ان يهبط على الارض و يبادلها عشقها عشقا و رغبتها جنونا و اشتياقها لوعة و حنينا ، و لكن الم يحكى لها هارون كيف ان ادم ترك الجنه من اجل امرأة ؟ كم كانت قويه تلك المراة التى تقنع رجلا ان يترك جنه السماء من اجل ثمرة تفاح ، تذكرت ذلك اليوم و قد ارتكن هارون تحت ظل شجرة من الاشجار العاليه بجوار النهر و قد فرغ من صلاته و بدأ يرتل تسابيحه حتى اقتربت منه و بدت على غير العاده فى ملابس النساء و تعمدت ان تظهر من مفاتنها اكثر مما تخفى مما اثار حيرة هارون و ارتباكه ،

تلالأت عيناها الفيروزيتين بالرغبه و انساب صوتها فى اذنيه كفحيح افعى فى موسم التزاوج حين اقتربت منه هامسه:

"هارون ، الم يصادفك الحب يوما".

ارتعد هارون و شعر بالحمى تسرى فى جسده و قد فهم مقصدها و لكنه ابتعد بصورة مفاجئه عنها قائلا:

"لقد تمكن الحب منى يا سعيده و لا يكاد يخلو قلبى يوما من الشوق و اللهفه و التمنى".

ابتسمت دون ان تدرى مغزى لحديثه فاستطردت فى اسئلتها:

"و اليس للحب من نهايه ؟ اوليس من واجب المحب ان يطفىء لهيب محبوبه و ان يتم التلاقى ؟".

نظر هارون للسماء:

"حبى يا سعيده ليس له نهايه و ينبغى ان يكون حبك كذلك ، كيف يكون له نهايه و هو ملك لمن ليس له بدايه و لا نهايه ؟ القلب ملك لصاحبه يا سعيده و ليس به مكان لسواه".

شعرت سعيدة بخيبه امل ، كانت تنتظر ان يضمها هارون او يبادلها رغبتها و هو الشاب فى عنفوانه الا انه امسك بيدها و وضع يدها على صدرها قائلا:

"هذا القلب يا سعيده هو ملك لخالقه و لا يصح ان تهبى ما لا تملكينه لمن لا يستحقه".

لم تلتفت كثيرا لما يقوله ، كانت تعرف ان الحب بين رجل و امراة لابد ان ينتهى بالتلاقى ، سيطر عشقها على كل ذرة عقل لديها ، تعرف انها جميله و يتمناها الكثير من الشباب ، لماذا لم تستطع نيل حبه و اهتمامه

؟ الم يرى فيها ما يثيره و يشعل نار فحولته ؟ حاولت ان تفهم و لكنها لم تقتنع ، لم تكف عن المحاوله و لم يكف هو عن المقاومه ، كانت مقاتله عنيدة حتى فى عشقها ، اخر استسلام لها هنا فى هذا المكان منذ عده اعوام حين فقدت باستسلامها ادميتها و تركت نفسها لذلك العابث ليستبيحها ، اما اليوم فهى لن تستسلم و لن تفقد رجلا تتمناه اكثر من اى شىء اخر ، اشهرت كل اسلحه انوثتها فى وجهه ، فراره منها كان يزيدها اصرارا و تعففه عنها يزيدها رغبةو شوقا ، حتى ذلك اليوم التى قررت ان تقوم بهجوم مباغت لا يستطيع منه فكاك ، كان خارجا للتو من النهر بعد ان اغتسل شابا وسيما تتساقط قطرات المياه فوق جبينه العريض بدا طويلا مفتول العضلات ابتسامته المشرقه اثارت شهيتها لدرجه لم تستطع معها المقاومه فارتمت بين احضانه هامسه:

"هارون انى احبك ، من كل قلبى احبك ، قل ما تشاء لن افهم الا انى احبك و اريدك".

انهكت المقاومه هارون فى الايام السابقه ، يصوم النهار و يقوم الليل لا يتوقف لسانه عن التهليل و التسبيح ليل نهار و لكن سلطان العشق تمكن منه فخارت مقاومته ، استطاع بجدارة ان يطفىء لهيب سعيده فارتمت على صدره تحاول ان تسمع نبضات قلبه ، ابتسم من برائتها قائلا:

"و الله لقد خذلنى هذا القلب ، وقع فى غرامك رغما عن ارادتى",

ترفع راسها فى دلال و تهمس فى شفتيه:

"و لكنى احببتك بارادتى و لم يخذلنى قلبى ابدا ، لقد وعدنى بانك لى و ها انت بين احضانى".

ارتمى فوقها هارون يرتشف شفتيها و اخذا ينهلا سويا من رحيق الحب حتى الثماله ، مرت الايام و هما فى نشوتهما غير عابئين بما قد تحمله

لهما الحياة من آلام او عذاب يسرقان الوقت او يسرقهما ، سكرة الحب تطيح برأسيهما فلم يلتفتا بما تحيكه لهم الاقدار ، بارك اهل القريه زواجهما و احتفل معهم الجد بالزفاف فى طقوس خاصه بالقبيله مضت بهما الايام و كأن الحزن لم يولد بعد و التعاسه ليست لها وجود ، كم هو رائع ذلك الشعور الذى ينقلك لحاله من السلام بينك و بين كل ما هو حولك من بشر و حيوان و حتى جماد ، يهبك نوع من الالفه مع الكون و علاقه متصله بالسماء.

بدأت سعيده تتعلم القرأءة و الكتابه باللغه العربيه ، وجدت صعوبه بالغه الا ان هارون كان يصر قائلا:

"كيف تعرفين الله و انت لا تستطيعين قراءة كلماته ؟".

عرفت الكثير عن الدين الاسلامى و كيف انه دين الحريه و قمه الحريه ان الله ترك لعباده حريه الاختيار فلم يرغمهم على الاعتراف به و عبادته ، كلماته عن الحريه كانت تزلزل كيانها و تتعجب من ابن الملوك الذى اختار حريته و ترك نعيم الدنيا من اجل وعد من السماء بالجنه و كانت تسأله:

"ماذا لو لم يتحقق وعد السماء يا هارون ؟ الن تشعر بالندم ؟".

تاتيها الاجابه مع ابتسامته التى لا تغيب.

"لقد تحقق بالفعل يا سعيده ، انا احيا بنعيم الله و فى نعيم الله".

و قد اختار حريته مرة اخرى حين تعرضت القريه لهجوم مباغت من ابناء عمومته فى احدى هجماتهم من اجل اصطياد العبيد ، تفاجىء رجال الزبير بوجود هارون فى القريه ، حاولوا اقناعه بالانضمام اليهم فلم يفلحوا ...عرضوا عليه ان ينجو بنفسه و يترك القريه الا انه لم يوافق ان يترك زوجته و اهلها فى مواجهه مع ابناء عمومته و يرحل ،

كيف و هو لم يتصف يوما بالخسه و النذاله !! كيف يهرب و بينه و بين زوجته عهدا فى السراء و الضراء !! لم يستطع الا ان يتشبث بسلاحه حتى اخر لحظه فى حياته دفاعا عن مبادئه و حريه سعيده ، كانت هى تقاتل بشراسه بجواره ، اعتى الرجال يفر من امامها كطفل مذعور و يرفع هارون يديه بين الحين و الاخر مهللا فرحا بشجاعتها و قوتها الا ان سهما طائشا استقر فى صدره لم يستطع المقاومه طويلا فسقط على الارض و الدماء تسيل منه ، سقطت سعيده فوقه تحاول ان تسعفه الا انه ابتسم لها ابتسامه واهنه قائلا:

"هذه هى المرة الثانيه التى يخذلنى فيها هذا القلب ، قاومى يا سعيده ، قاتلى من اجل حريتك".

اسلم هارون الروح ، وضعت سعيده راسها على صدره تتحسس النبض التى طالما كانت تطرب لسماعه الا انها لم تسمع سوى ازيز الموت داخله.

وقفت دليله ترتعد من الخوف فى خيمه عيسوى تتسائل كيف يمكن ان تخرج من الخيمه دون ان ينكشف امرها و ماذا لو بحثت عنها كاتيا كالمرة السابقه ، و ماذا لو دخل احدهم الخيمه و رأها ؟ بدأت تبكى و البرتو يربت على كتفها بحنان و هو يثق بعيسوى و حسن تصرفه ، بدأ عيسوى يحاول التفكير فى حل لهذة الازمه التى وقعت فيها تلك الفتاة المسكينه و صديقه البرتو ، اخذ عيسوى ينظر الي دليله و يتفحص بها مما اثار غيرة البرتو الذى يعرف صديقه و ولعه بالنساء الجميلات و غير الجميلات ، نكزه البرتو فى كتفه قائلا:

"عيسوى ، الديك حل للخروج من هذه الورطه عدا عن التفحص فى الفتاه".

ابتسم عيسوى و هو يعلم المغزى من ملاحظه البرتو.

"لا يا صديقى لا تسىء فهمى ، انا احاول مساعدتها بالفعل".

التف الجميع حول حلقات الذكر بعد تقديم الاطعمه و المشروبات للمتصوفه لترديد الاذكار و قد سادت البعض حالة من النشوة و ارتجت اجساد الرجال و ارتفع نحيب النساء مع سماع قصائد المدح فى سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم و فى كبار الصحابه ، وقفت كاتيا تشاهد و تسمع مثل غيرها من النساء ، بدات تشعر بجو من الروحانيه فى المكان و بعض كلمات العشق الالهى تؤثر بها فتنسال دمعة رغما عنها على خدها وسط تعجب من النساء المسلمات يسخرون يتعجبون من اليهوديه التى تتساقط دموعها مع ذكر الله.

و هكذا هم البشر منذ بدايه الخليقه و هم يصنفون بعضهم البعض ، الحب الالهى اصبح حكرا على المسلمين و كأن الله هو اله المسلمين فقط ، فى الاديان كل صاحب دين يحتكر الاله و الجنه لطائفته و فى السياسه يحتكر كل صاحب رأى الحقيقه و فى المبادىء يصبح كل ذى مبدأ هو فقط الذى يحمل لواء الشرف ، لم يتقبل الانسان فكرة الاختلاف منذ بدء الخليقه ، لم يتحمل ان يختلف الاخر عنه ، و لو اعتاد الاختلاف هل كان قابيل يقتل اخاه و تقوم حروب بين قبائل و طوائف و بلدان و تبيد الشعوب بعضها ؟ اكبر الحروب التى قامت فى العالم و التى ابيد فيها الالاف بل الملايين هى حروب دينيه ، قد تكون فى بعض الاحيان بين ابناء الدين الواحد و لكن اختلاف المذاهب بينها قد يجرفها لانهار من الدماء من اجل انتصار مذهب على الاخر كالحروب الاوروبيه التى قامت بين البروتستانت و الكاثوليك و التى قد استمرت اكثر من مئه عام و فى الاحيان الاخرى تكون لنصره دين على الاخر كالحروب الصليبيه التى انضم اصحابها لجبهه الدفاع عن الله و ممتلكاته فى الارض فقتلوا المسلمين و حرقوهم و شردوا الالاف منهم فى سبيل الصليب ، حتى ان الخلافه العثمانيه التى قامت من اجل

الاسلام اعتمدت فى تكوين امبراطوريتها و توسيع نفوذها على الحروب و مهاجمه الدول و تشريد الاقليات و اصبح فى كل مكان من العالم مندوب عن الله يتحدث باسمه و يهاجم باسمه و يفجر انهار الدم باسمه و الله منهم براء.

رفعت كاتيا وجهها و هى تمسح دموعها و تنظر للسماء حين لفت انتباهها شابين و فتى صغير يخرجان من الخيمه و يسيران بشكل اثار ريبتها ، حاولت كاتيا ان تدقق النظر فى الثلاثه الا انهم اختفوا خلف الخيمه بسرعه اثارت شكوك كاتيا فتسائلت:

"ياترى اين انت الان يا دليله ؟".

لم يكن الثلاثه الا البرتو و دليله و عيسوى الذى تفتق ذهنه عن هذه الحيله لاخراج دليلة من الخيمه دون ان ينكشف امرها فاضطر ان يلبسها عبائته و يضع عمة فوق رأسها فاصبحت تبدو كفتى صغير و استطاع بهذه الحيله توصيلها لخيمتها بصحبه البرتو الذى اصابته حاله من الضحك لم يستطع التوقف عنها حتى كاد ينكشف امرهم الا ان التفاف القافله حول المتصوفه انقذ دليله التى دخلت خيمتها فخلعت الجلباب و العباءة سريعا و اعطتهم لالبرتو الذى ما ان عاد لخيمته حتى اكتشف نسيان دليله لصندوق الموسيقى فقرر ان يعود لاعطائها اياه الا ان عيسوى حذره انه سيلقى حتفه يوما جراء جنونه.

حاولت دليله التماسك و السيطرة على اعصابها حين باغتتها كاتيا التى وقفت على باب الخيمه تنظر بارتياب لدليله و قد ساورتها الشكوك:

"اين كنت يا ابنه ابيك ؟".

سادت لحظات من الصمت قبل ان تتلعثم دليله و هى تحاول ان تبحث عن اجابه لسؤال كاتيا و لم يسعفها تفكيرها للرد على السؤال المباغت الا ان تدخل الست سكينه انقذها من براثن كاتيا حين قالت:

"كانت معى يا كاتيا فى السوق نقضى بعض الحاجيات".

نظرت كاتيا نظرة تحد للست سكينه و دليلة و سألت بتهكم:

"و اين هى تلك الحاجيات ؟".

حولت دليله نظرها للست سكينه تنتظر ان تنوب عنها فى الاجابه الا ان سكينه تظاهرت بالتعب و ضعت يدها على رأسها و وجهت حديثها لدليله:

"اين الدواء يا دليله ، رأسى تكاد تنفجر يا بنيتى".

تظاهرت دليله بالاهتمام و هى تبحث عن الدواء مما اضطر كاتيا للانسحاب و قد تأكدت شكوكها بان دليله تخفى سر ما و لابد ان تكشف امرها.

،،

" سراي عابدين "

ألقت شمس اكتوبر الدافئه اشعتها بتكاسل على الخديوى اسماعيل و هو يتناول افطاره فى شرفه السرايا و قد اكفهر وجهه بعد ليله طويله اخرى بلا نوم ، بعد ان انسحب المندوب الانجليزى جوشن و المندوب الفرنسى جوبيير الذان اجتمعا معه بالامس من اجل اكراهه على الاذعان بفرض الرقابه الاوربيه على الماليه المصريه رغم حاله الاستياء العامه التى انتابت الشعب المصرى من التدخل فى شئون البلاد الا انه لم يستطع الا الموافقه خشيه على مكانته و للحفاظ على العرش فقد كان يعلم ان انجلترا و فرنسا قادرتان على زعزعة ملكه.

و بالرغم من اذعانه لرغبتهما الا ان المندوب الانجليزى اصر على اقاله اسماعيل صدقى باشا عن وزارة الماليه و كان اسماعيل يشعر بانه بين شقى رحى صدقى باشا لم يكن مجرد وزير بل كان كاتم اسراره و طالما اتاح له ان يغترف بكلتا يديه من ميزانيه الدوله دون اعتراض و لكنه الان مضطر للتخلى عنه تحت الضغط الاوروبى و بخاصه ان جوشن هدد بتقديم صدقى للمحاكمه لاهداره حقوق الدائنين.

وضع صدقى باشا فنجان القهوة بعصبيه حين اخبره اسماعيل بما يحدث و طالبه بالولاء.

"و لكن يا مولانا ساحاكم بتهمه لم ارتكبها ، هل انا من ضيعت حقوق الدائنين ؟ هل انا من انشأت السرايات و اقمت الاحتفالات و وزعت العطايا و الهبات ؟".

شعر الخديوى بالحرج ، و كيف لا و هو باسرافه و تبذيره حتى و ان كان بحسن نيه من اوقع نفسه و بلده رهن رغبات الاجانب الذين طالما نالوا عطفه و رعايته من قبل ، عقب اسماعيل على كلام الوزير قائلا:

"و لكن صدقى باشا ان استقرار الوطن اهم منى ومنك ، لابد من اخماد خططهم الخبيثه لزعزعه استقرار مصر و النيل من سيادتها".

حمل صوت الخديوى اسى و ضعف اسد جريح مكبل انكب عليه مجموعه من الاطفال يلقونه بالحجارة و يهللون لشجاعتهم ، وقف صدقى باشا و هم بالانسحاب الا ان الخديوى امسك ذراعه و قال له:

"لابد من ان نقدم التضحيات لوطننا ، اليس كذلك ؟".

التفت اليه صدقى و قد تحولت نبرة صوته للوعيد.

"انا لست كبش الفداء سيدى الخديوى ، اذا قررت ان تضحى بى فسيكون دفاعى عن نفسى بالوثائق التى تثبت اننى لم اتلاعب بديون او فوائدها ، كل ما تم انفاقه كان لتنفيذ رغباتك و احلامك".

حاول الخديوى تهدئه صدقى باشا و ملاطفته و اقنعه انهما لابد ان يجدا حلا لهذه الازمه و انها ليست الاولى و لا الاخيرة التى يقعا فيها و يستطيعا الفكاك منها بحنكه صدقى باشا و حكمته و دعاه لسراى الجزيرة حيث تقام الاحتفالات بزواج ابنته و طلب منه ان يصحبه الى هناك فى عربته الخاصه.

كانت الطريقه المريبه التى اختفى بها صدقى باشا تلقى باصابع الاتهام نحو الخديوى اسماعيل و بخاصه ان الاختفاء كان قبل محاكمته بايام و رغم ذلك تمت المحاكمه الصوريه و حكم بنفى صدقى الى دنقلا و سجنه بها و بعد انتهاء المحاكمه تم اصدار مرسوم الرقابه الثنائيه على مصر و الذى جعل من الاوروبيين اوصياء على الدوله المصريه و كان ذلك هو اول مسمار يدق فى عرش الخديوى اسماعيل و رغم الاستياء الشعبى من التدخل الاجنبى الا انه لم يكن امام اسماعيل مفرا للحفاظ على عرشه و على وحده بلادة سوى القبول بهذا الامر و لم تكن الدول الاوربيه فى هذا الوقت تفكر فى الديون و كيفيه تسديدها بقدر تفكيرها

فى كيفيه تضييق الخناق على اسماعيل و السيطرة على الدوله المصريه بكل الوسائل.

،،

" درب الأربعين "

ثلاثة أيام تتحرك فيهم القافله وسط الصحراء و قد التصق اللون الاصفر فى العيون و انطبع فى القلوب.

الريس قاسم يقود القافله خلال الطريق المقفر كربان سفينه يمخر عباب الصحراء بفن و مهارة ، لم تكن الصحراء بالنسبه لرؤساء القوافل مجرد رمال صفراء و لكنها طرق و مسالك لابد للقائد من معرفتها جيدا لئلا تقع القافله فى فخ التيه او البعد عن مصادر المياة من ابار و التى كان يهتم سلاطين دارفور و الخديوى اسماعيل بحفرها لمساندة المسافرين فى رحلتهم القاسيه اما بالنسبه لقاسم فقد كانت الصحراء هى عمره كله طفولته و شبابه ، ضاع منهم الكثير فى هذا الطريق و قد طبعت الصحراء تأثيرها على شخصيته فاصبحت روحه مثلها جافه قاسيه ، لا يتذكر انه قضى حياته باطوارها الطبيعيه، لا يتذكر انه كان طفلا يوما ما بل اغلب الظن انه ولد هكذا رجلا فلم يعرف لعب الاطفال او بكائهم ، لا يتذكر حضن امه ، هل كانت امه تهدهده كبقيه الاطفال ؟ لا ، كانت امه رجلا فى الدار و يبدو ان غياب ابيه فترات طويله فى رحلاته هو السبب ، تظل الانثى انثى طالما فى حياتها رجلا يقوم بدوره فإذا غاب تتحول هى لرجل و قد تكون فى بعض الاحيان اكثر رجوله ، نعم ، هكذا كانت امه رجل ، انه لا يتذكر انه رأها مرة فى زينتها او ترتدى الحلى الذى ورثه منها بعد وفاتها ، لم تبكى يوما او تشتكى ، لم تمرض او تتعب بل ماتت واقفه ، ربما لم يكن لديها الوقت ، فى غياب الزوج و وجود عشرة من الصبيان و البنات وام عليله و ام زوج متسلطه.

ابتسم قاسم و ترحم على امه متسائلا ، لماذا لم يجد امرأة مثل امه ؟ هل هذا النوع من النساء انقرض ام ان حظه السيء هو الذى اوقعه فى ام

عبد الرحمن ؟ زوجته التى طوال عشرون عاما لم تنجب الا البنات ، سبعة فتيات اختطف منهن الموت اربعه حتى حدثت المعجزة و انجبت عبد الرحمن ، لم يصدق نفسه وقتها ، كانت سعادته لا توصف بهذا الطفل حينما حمله للمرة الاولى و سمع صوت بكائه ، شعر بان قلبه اصبح ملكيه خاصه لهذا الذكر ، ثلاث سنوات مرت و هو يحلم و يخطط لمستقبل عبده ، لابد ان يتعلم القراءة و الكتابه ، سيحفظ القرأن كاملا و سالحقه باحدى حلقات القران ، سيتعلم اصول الدين ، لن يكون ابنى دليل قوافل حتى لو اصبح ريس ، سيكون عالما فى الدين ، تضحك ام عبده و هى ترى زوجها يكاد يجن بابنه:

"شنو يا سى قاسم ، لسه الولد صغير".

فيرد عليها قاسم و هو يحمل ابنه بين ذراعيه و ينظر فى عينيه.

"و الله يا زول واضع عليك كل املى تحقق كل ما اتمنيته لنفسى فى الحياة ، اوعاك تخذلنى يا عبده".

ثلاث سنوات لم يخرج فى ايه رحله ، انفق كل ما كان يدخره من اموال من اجل ان يبقى بجوار عبد الرحمن ، كان قرة عينه ينام فى حضنه و يطعمه بيديه ، يخشى عليه من الحسد حتى من اخوته البنات ، لا يتذكر انه لاحظ اختلاف عبد الرحمن عن باقى الاطفال فى شىء ، كان كثير البكاء و احتار قاسم و زوجته فى سر بكائه ، ذهبا به لاكثر من طبيب و فى كل مرة يؤكد الطبيب ان ابنهم لا يعانى شىء الا من بعض التقلصات فى معدته او الالتهاب فى الحنجرة و لاحظت زوجته انه ربما تاخر ابنهم فى المشى عن بقيه اخوته البنات و انه لايستطيع الجلوس بصورة طبيعيه و انه لم ينطق حرفا رغم انه اتم عامه الثالث الا ان قاسم كان يكذب ما تراه عيناه ، يرفض ان يعترف لنفسه ان عبد الرحمن ليس طفلا طبيعيا.

حتى ذلك اليوم الذى ذهب به لطبيب اطفال مصرى كان فى رحله للسودان و عائدا للتو من بريطانيا حيث اتم دراسته هناك و كانت صدمه قاسم كبيرة حتى انه اعتدى بالضرب على الطبيب حين اخبره بان عبد الرحمن مختلف عن باقى الاطفال ، عنده نوع من التأخر العقلى و ربما لن يعيش طويلا كبقيه الحالات التى تعانى نفس المرض ، خرج قاسم من عند الطبيب و هو يحمل ابنه بين ذراعيه يضمه لصدره بين الحين و الاخر و كأنما يخشى ان يختطفه الموت قبل ان يشبع من حضنه ، بكى بدموع حارة ربما كانت هذه المرة الاولى و الاخيرة التى يبكى فيها ، ينظر لابنه نظرة عتاب و يضمه ثانيه الى صدره ، تبدلت احواله فاصبح يكره البقاء فى الدار ، يخرج فى قوافل بصفه دائمه و اثناء وجوده فى السودان يقضى معظم اوقاته فى مجالس الرجال ، لاحقته ام عبده بالشكوى كلما راته حتى بات يكرهها و يكره وجودها فى حياته ، شهور مرت عليه و هو يتعذب كلما رأى عبده مختلفا.

لم يمت عبده كما قال الطبيب و لا يعرف هو ان كان سعيدا لانه ابنه لم يمت ام حزينا لان وجود طفل ابله من نسله يشعره بالخجل ممن حوله من الاهل و الاخوة و الاخوات و قد انجبوا جميعهم العديد من الصبيان الاصحاء ، لم يفكر فى الزواج مرة اخرى و لا يعرف ما هو سبب عزوفه عن الزواج من امراة ثانيه ، لم يكن يشعر بالحب تجاه زوجته ام عبده ، لا يتذكر انه اشتاق لها يوما او تمتع بقربها منه مثل اى رجل مع زوجته حتى العلاقه بينهم كان يقوم بها كأنها تأديه واجب ، كانت ام عبده ابنه عمه قبل ان تكون زوجته ، تيتمت فى صغرها و تربت فى دارهم بين اخوته ، قد يكون هذا هو السبب فى نفوره منها فى البدايه حتى اجبره ابوه على الزواج منها فاعتاد على وجودها فى حياته و فارق كبير بين الحب و الاعتياد و لكن بعد هذة المحنه اصبح يربطه بها

نوع اخر من المشاعر ، ربما الحزن الذى قد يوحد البشر و يزيد من اواصر الرباط بينهم و ربما الشفقه على امرأة وصلت لسن الاربعين و لم يعد لها امل فى الانجاب مرة اخرى ، ربما عقدة الذنب لعدم شعوره نحوها بأى قدر من المحبه او الاهتمام.

و لكن ، هل هذا هو السبب الحقيقى لعدم زواجه ثانيه ؟ قد يكون السبب انه قد شارف على الخمسين من عمره و يخشى ان يترك خلفه ذريه تضيع من بعده ام لانه لم يجد فى حياته امراة مثل امه ؟ امرأة رجل ، هل فقد الثقه فى النساء و لم يجد من بينهن من تصون عرضه فى رحلاته الطويله مثلما كانت امه ؟

اخذته افكاره لامبابه رغما عنه ، المحطه الاخيرة للقافله التي ينتهى اليها تجار الجمال ، تأوه قاسم و هو يتذكر "سنية" ، تلك المراة التى افقدته الثقه فى نفسه و فى النساء جميعا وجهها الصبوح الابيض المشرب بالحمرة و عينيها الكحيلتين و شعرها الغجرى حين ينسدل على كتفيها لتصبح نموذج للانوثه المتقده ، لم يتخيل يوما ان يعشق امرأة مثلها و لكن هذا ما حدث ، منذ الوهلة الاولى التى رأها فيها و هى تفتح مشربيه منزلها فى امبابه لتلقى نظرة على المارة حين وقعت عينيه عليها لاحت منها ابتسامه خفيفه لم يكن يدرى هل تقصده هو بهذه الابتسامه ام انها كانت عفويه منها ، لم يكن قاسم ذو وسامه او جاذبيه ، رجلا عاديا سودانى اسمر البشرة اكرت الشعر ذو شوارب عريضه ، كيف لمن مثله ان يلفت نظر هذه الحسناء ؟ ظل قابعا امام باب الدار النهار بطوله ، لم تظهر مرة اخرى فى المشربيه و لكنه لمحها ساعه العصارى تخرج من الدار ، لم يكن يبدو منها سوى عيناها الساحرتين تحت البيشه المصريه و صوت خلخال ارتدته فى قدميها لتنبئ الحضور بان ست الحسن تمر من هذا الطريق ، انخلع قلب قاسم على رنه الخلخال و لم يجد بدا من السير خلفها حتى دخلت دارا اخرى فى نهايه

الطريق و للحظه تصور انها تناديه ، رفع رأسه ليجدها تومىء له من المشربيه فى الطابق الثانى.

يبتسم قاسم و هو يتذكر ذلك اليوم ، كم كان متهورا بل مجنونا حين صعد للمكان و دخل دون حذر ، وجدها شقه صغيرة و اثاث بسيط ، لوحات لراقصات و نساء عاريات ، مشربيه تطل على الطريق ، فتاتان صغيرتان يلبسن ملابس عاريه مطرزة بالخرز و الترتر ، رائحه البخور تملأ المكان ، رحبت به و ما هى الا ثوان حتى خلعت الملس و اليشمك ليقع صريعا لهذا الحسن المصرى الفتاك ، العينان السوداتان الواسعتان و قد زادهما جمالا و اتساعا الكحل العربى و شعرها الغجرى اللامع بفعل الزيوت و فمها الدقيق الذى لونته باللون الاحمر الصارخ و صبغت وجنتيها ايضا باللون الاحمر و ارتدت فستانا من الساتان الاسود المطرز بوردات حمراء على الصدر ، ذكره مظهرها بالعروسه الحلاوة التى طلبتها منه زوجته من مصر فى المولد النبوى و التى لم يشتريها ، لم يكن قاسم قد دخل بيت من بيوت المتعه من قبل ، ربما لانه لم يكن وقت مكوثه فى مصر يسمح بذلك و ربما شخصيته الجاده كريس قوافل لم تتح له فرصه اللهو و العبث مثل اقرانه من الشباب ، جلست سنية بجانبه و هى تسأل:

"ما هو الاسم الكريم يا معلم".

غلى الدم فى عروق قاسم ، كيف استطاعت هذة المرأة ان تسلبه ارادته فيسير وراءها بدون تفكير و يدخل هذا المكان و هو لم يفعلها و هو شاب صغير ؟ فكر ان يقاوم و ينسحب و يترك المكان الا ان صوتها و هى تسأله للمرة الثانيه عن اسمه و قد ازداد دلعا و دلال قد حطم ارادته و دك كل حصون المقاومه لديه.

"اسمى المعلم قاسم ، ريس القوافل و دليلها فى صحراء السودان"

"انعم و اكرم".

قالتها سنية و هى ترحب به و قد تعمدت ان تربت بيديها على كتفه فظهر باطن ذراعها الابيض الشمعى فقضى على البقيه الباقيه من عزيمته على الهروب ، تحدثا كثيرا ، حكى لها عن اسفاره الطويله و المخاطر التى كان يلاقيها فى الصحراء و كيف انه كاد يفقد حياته فى العديد من المرات ، كانت تسمعه بشغف و تبدى اهتماما ربما يكون زائفا و لكنه بدأ يشعر بارتياح فى المكان ، حكت له كيف تعذبت بعد وفاه زوجها و كيف تخلى عنها الاقرباء لتجد نفسها وحيده ، قالت و هى تتصعب و تمصمص شفتيها:

"لم يكن لدى مصدر رزق لى و لاولادى ، هل اترك الاولاد يضيعوا ؟ لم ادرى ماذا افعل ، اضطرت للاعتماد على نفسى حتى لا يموت الاولاد من الجوع".

كانت تحكى لقاسم و تمد يدها بين ثنايا صدرها لتخرج منديلا صغيرا تمسح به دمعه فرت منها ، قفزت عينا قاسم لصدرها المرمر و هى تخرج المنديل و لم يكن يدرى هل يصدقها ؟ قد تكون هذه قصه مختلقه تحكيها لكل من يرد هذا الوكر ، تظاهر بتصديقها و التعاطف معها ، مرت اللحظات الحميميه الاولى لقاسم مع سنية مرتبكه ، لم يعرف فى حياته الا زوجته ام عبده ، لم يكن يتعامل مع ام عبده على انها امراة بل كان يطأها كما يطأ الجمل ناقته اما مع سنية فكان الوضع مختلفا ، زادت حيرته و هو يحاول يفك رموز جسدها ، من اين يبدأ و اين و متى ينتهى ؟ مرت دقائق و هو يحاول اكتشاف التفاصيل و يتحسس خطاه فى دروب الجسد الابيض البض ، و بعد فترة ليست كبيرة و لتعاون سنية المثمر معه بدا يشعر بانه ليس غريبا عن هذا المكان و عن هذا الجسد.

استلقت سنية على السرير شبه عاريه و عطرها النفاذ يملا المكان و قد انسدل شعرها الغجرى فوق كتفيها و صدرها ، خرج قاسم من الحمام يلف جسده بمنشفه و بدأ يرتدى ملابسه ، قالت بصوت امتزج فيه الانهاك بالنشوة:

"ما بدرى يا سيد الرجال ، علام الاستعجال ؟".

الا ان قاسم تعلل بان هناك بعض التجار فى انتظاره للرحيل مرة اخرى للسودان ، كذب عليها فقد انتوى الرحيل و عدم العودة مرة ثانيه ، انه ليس من الرجال المغفلين الذين ينفقون اموالهم على العاهرات و فتيات الليل ، اذا كانت له رغبه بالنساء فليتزوج امرأة شريفه تصون عرضه و تحفظ اسمه ، انه لم يعتاد ان يشرب من اناء ولغ فيه الكلاب ، اخرج من سيالته مبلغ من المال ربما كان كل مايملكه وضعه على منضده امامه و هم بالانصراف حين وقفت سنية على السرير على ركبتيها و هى تمد ذراعيها نحوه ، اقترب قاسم منها فاحتضنته و قبلته فى صدره و هى تقول:

"سانتظرك يا سيد الرجال ، لا تغيب عنى".

و منذ ذلك اليوم و لم يغيب قاسم اكثر من اربعين يوما هو الوقت الذى يقطعه فى الصحراء ذهابا و ايابا ، خمس سنوات مرت على اليوم الاول و لازالت على جمالها و على وعدها بانتظاره ، كان قاسم يشعر فى كل مرة يدخل دار سنية بانه يخلع رجولته عند اعتابها و هو يعرف انه ربما كان فى الدار قبله رجلا و سيكون بعده رجلا اخر ، هل يمكن ان يجمع بين المتناقضات فى شخصه ؟ رجلا بين اهله و ريس بين اقرانه و فى ذات الوقت العوبه فى يد عاهرة ، حاول ان يمتنع عن زيارتها و لم تفلح محاولاته حتى توصل معها لاتفاق ان تكون له وحده

و يتكفل هو بمصاريفها وافقت بترحاب ، يترك لها من الاموال ما يكفيها لشهرين هى اطول فترة قد يغيب فيها.

و رغم ذلك اكتشف انها تستقبل رجال اخرين فى الدار فى غيابه ، ذلك بعد شهرين من الاتفاق بينهم حين اتى لمصر فى رحله سريعه لم تكن سنية تتوقعها ظل مرابطا امام الدار يراقبه حتى دخله رجل يرتدى بدله افرنجى و طربوش عثمانى ، كان الرجل يبدو عليه من الاعيان ، لم يدرى قاسم ماذا يفعل ، فكر ان يباغتهما سويا و يقتلها و يقتل الرجل و لكن من هى حتى تأخذه الحميه عليها ، انها مجرد عاهرة تملك وكر للهوى ، اذا ينتظر حتى يخرج الرجل من عندها و يلومها على فعلتها و يوبخها ، و لكن قد لا تقبل توبيخه و ربما تقطع علاقتها به او تطرده و قد وجدت البديل ، فعلت الافكار افاعيلها برأسه و هو قابع امام الدار حتى شاهد الرجل الاخر و هو يخرج ، صعد السلالم و هو يتصبب عرقا و تتلاهث انفاسه ، مد يده ليطرق الباب و لكنه سحبها ، قرر ان يلملم ما تبقى من رجولته و يرحل عن هذا المكان بلا رجعه ، نزل بضعه سلمات و توقف ، سنية هى كل شيء بالنسبه له ، لا يشعر انه رجلا الا معها ، لا يشعر انه حى الا من خلالها ، لا يشعر انه يتنفس الا بين ذراعيها ، انه لا يستطيع الاستغناء عنها ، كان يريد اسكات الصوت بداخله.

"ارحل يا قاسم ، حافظ على البقيه الباقيه من كرامتك ، ارحل و اترك تلك المراة التى اعتادت حياة اللهو ، الم تعرض عليها حياه كريمه و اغدقت اموالك عليها و ابت الا تكون لك وحدك ؟".

اخذ قاسم يحدث نفسه فى محاولة لتبرير افعالها او بمعنى ادق عن مخدر لرجولته.

"و لكن من يدرى مدى احتياجها ، ربما اموالى لم تكفيها ، ربما لو زاد المبلغ ، ربما لان غيابى يطول و هى الشابه النضرة".

يتحدث الرجال عاده عن الشرف و المبادىء و تأخذهم العزة برجولتهم فقط امام زوجاتهم او بناتهم الا انهم يستطيعون عن طيب خاطر التنازل عن كل هذا امام امراة مثل سنية دون الشعور بالخجل او اى نوع من اللوم الذاتى ، قد يقتل رجلا تحت ستار المبادىء و المنطق ابنته او زوجته اذا فرطت فى نفسها و هو ذاته الرجل الذى يلقى بكرامته و امواله تحت اقدام عاهرة من العاهرات ، هل يمكن ان يكون الريس قاسم الذى جاب الصحراء طولا و عرضا واجه خلالها قراصنه و قطاع طرق و رياح و عواصف و لم يستسلم او ينحنى بل كان فى كل المواقف رجلا يعمل له الجميع الف حساب هل مثل هذا الرجل يمكن ان ينحنى لامراة مهما كان قدر جمالها و قدر شغفه بها ؟ هل يقبل ان يكون رقما بين الارقام ؟ واحدا من العشاق الكثر ؟ هل يرتضى هذا على كرامته و رجولته ؟

ارتفع صوت مؤذن القافله حين توقف الجميع و قد تراص الرجال فى صف واحد لاداء الصلاة بينما كانت سعيده تشاهد هذا المنظر البديع ، كيف يجتمع هؤلاء الناس المختلفين فى ارائهم و شخصياتهم و يقفوا صفوفا بلا منظم او قائد فى لحظات قليله ؟ ثم ينفضوا ليتناحروا و يتقاتلوا و يسلب بعضهم حق الاخر ، من الذى جمعهم و من الذى يفرقهم ، اذا كان الله خلق البشريه و فطرها على الايمان به لماذا يتركهم لبعضهم البعض ، لماذا لا يقتص من الظالمين و يرد المظالم للمظلومين فى الدنيا ؟ لماذا خلق القوى و الضعيف ، و الصحيح و العليل ؟ بل لماذا خلقنا الله ، انهى الرجال صلاتهم حين استغرقت سعيده فى افكارها و سمعت صوتا من خلفها يقول:

"خلقهم ليعرفوه ، فاذا عرفوه احبوه ، خلقهم لانه يحبهم".

تنبهت سعيده على الصوت تلفتت خلفها لتجده شيخ المتصوفين الذى يؤم الرجال فى الصلاة ، نظرت اليه سعيده و هى تتعجب ، ابتسم لها الشيخ و هو يقول:

"الم تسألى لماذا خلقنا الله ؟ هذه اجابه سؤالك".

تعجبت سعيده من هذا الرجل ، كيف يعرف ما يدور بينها و بين نفسها ؟

نظرت سعيده للسماء و كأنها تبحث عن الله و تقول:

"و لماذا يترك الضعيف للقوى و المظلوم للظالم ؟".

قال الشيخ بابتسامة ودودة:

"و من قال انه يتركهم لبعضهم البعض ؟ انت فقط تنظرين على قدر بصرك و لو نظرتى على قدر بصيرتك ستعرفين انه لا يترك عباده و عبيده".

اطرقت سعيده و قد ترقرت عيناها بالدموع و قالت:

"و لكنه ترك هارون الذى كان يؤمن به يموت ، لم ينقذه".

وضع الشيخ يده على كتفها حين قال:

"و من منا لن يموت ؟ لم تقولين تركه و لا تقولين اصطفاه ؟".

تعجبت سعيده من كلمات الشيخ التى ذكرتها بكلام هارون فبادرته بسؤال كانت ترغب فى سماع اجابته مرة اخرى او قد سمعتها قبلا من هارون:

"كيف تثق بوجود اله و انت لم تره ؟".

انطفات ابتسامه الشيخ و قد اتكأ على عصاه و قال و قد بدات تفيض عينيه بالدمع:

"و الله انى اراه فى كل لحظه ، فى كل لمحه و لكن كما قلت لك هناك اشياء نراها بابصارنا و اخرى نراها ببصيرتنا اضاء الله بصيرتك يا بنيتى".

اتكا الرجل على عصاه و هو يمشى بصحبه تلاميذه و نظرت سعيده للسماء نظرة اخرى تفكر فى كلام الشيخ ، اوشك المتصوفه على الرحيل متجهين فى طريقهم لحميثرة و قد ألح الريس قاسم عليهم بالبقاء مع القافله حتى الوصول لاسوان الا ان الشيخ اخبره ان خطواتهم قد رسمت قبل الخروج من بلدهم و لابد ان يسيروا على خطى سيدى الشاذلى ، بكت النساء لرحيل المتصوفه فقد كان وجودهم ما يضفى حاله من الامان و السكينه على الطريق.

شعر الريس قاسم بحاسته الصحراويه و من كثره ذهابه و ايابه فى هذا الطريق الذى بات يحفظه بالخطر ، تنامى هذا الشعور لديه بعدما هبت الرياح الخفيفه و التى لم تكن الا انذارا بهبوب عاصفه قد تهدد سلامه القافله و ركابها و صدق حدس قاسم فما كانت الا دقائق معدوده حتى هبت رياح عاتيه كامواج البحر و تطايرت البضائع من فوق الركائب و اظلمت الصحراء تماما و تحول النهار الى ليل و عجز الراحلون عن الرؤيه او التنفس فبدأ كل منهم يحمى نفسه بالطريقه التى يراها ، منهم من نزل من فوق ناقته مثل عيسوى و البرتو الذين تشبث كل منهما بالآخر و غطيا وجهيهما حتى يستطيعا التنفس ، اما كاتيا و دليله فقد بقيتا داخل الهودج فى حاله من الفزع و الرعب مما يحدث فى حين احتضنت سعيده الفتيات الاخريات و اختبات فى ظل جمل كان باركا على الارض ، لم يستطع الفتى عثمان بجسده النحيل الصمود امام العاصفه فاخذت الرياح تدحرجه على الارض فلم يستطع مقاومتها.

لحظات مرت كالدهر على المرتحلين حين قررت الطبيعه ان تزأر و تعلن عن سخطها و تبرز قوتها فى مواجهه كل قوى ، حين توالى الرعد و البرق فى السماء و بدات السيول تنهمر بغزارة ، و كدأب الانسان من قديم الازل حين تغلبه الطبيعه و تزعزع كبريائه و جبروته ينحنى و يعلن استسلامه فإذا منحته الفرصه الثانيه كان اطغى و اظلم ، بدأ الذعر يدب فى النفوس و ارتفع عويل و نحيب النساء و باءت كل محاولات الرجال بالفشل فى الحفاظ على هدوئهم فارتفعت اصواتهم بالدعاء لرب السماء ان ينجيهم معلنا كل منهم توبته مقرا باثمه عسى ان يغفر الله لهم و يكتب لهم النجاه.

اندفعت السيول بشده فجرفت معها الركائب و البضائع و لولا رباطه جأش الريس قاسم و حكمته و خبرته فى التعامل مع هذه المواقف التى اعتاد عليها فى رحلاته فى تلك الصحراء لكانت السيول ربما تقضى على القافله بمن فيها ، لحكمه لا نعلمها لا تطول فترة سقوط السيول فى الصحراء ، ربما هى رحمه و عنايه الله بالكائنات الضعيفه التى تسكن الصحراء و لا تستطيع الصمود فى مواجهه ذلك الجبروت ، بدات السيول تخف حدتها و تتحول لامطار خفيفه قبل ان تتوقف و تتحول السماء من اللون البنى للازرق حين اطلت الشمس على استحياء و كأنها تشعر بتأنيب الضمير على فترة غياب قصيرة استغلتها الطبيعه لتبرز عضلاتها و تستعرض قوتها على المرتحلين و كانها تقول لا يغتر احدكم ان قوته و ذكاءه لهما مكان فى حضرة الجبروت و الجلال ، حين تقول الطبيعه كلمتها لابد ان تخرس الالسنه.

بدأت العاصفه تهدأ و اخذ المسافرين فى التقاط انفاسهم و التلفتوا للاطمئنان عن احوالهم ، تعالت صيحات ابو الفتى عثمان بحثا عن ابنه و قد اختلط صوته ببكاء و نحيب تجار الرقيق الذين فقدوا كل بضاعتهم من العبيد تحت ركام الاتربه و الرمال ، وقفت سعيده تنظر للعبيد الذين

لم يستطيعوا دفاعا عن انفسهم امام بطش الصحراء التى لولا القيود التى كانت تكبلهم ما كانت استطاعت ان تغير عليهم و ترديهم قتلى ، ملأت الرمال انوفهم و افواههم ، شهقت سعيدة و هى تدير وجهها ، وضعت يدها على فمها حين وقعت عيناها على احدهم كان فتى يافعا لم يتجاوز الخامسه عشر ، انه عثمان ابن تاجر الحرير ، تذكرت اخته تلك الطفله البريئه ذات الجدائل التى كانت تبكيه قبل الرحيل ، تساقطت دموع سعيده حارة على وجنتيها ، تعالت صرخات البرتو و هو يحتضن عيسوى الذى تنفجر من كتفه الدماء بغزارة ، حاول البرتو اسعافه لكنه لم ينجح فى وقف النزيف الذى اصابه جراء تطاير الامتعه و ارتطامها به فى حين كان يحمى البرتو بجسده ، تنبهت سعيده على صوت البرتو ، حاولت المساعده بما اكتسبته من خبرة جدها فى مداواه الجرحى ، طلبت منه ان يضغط مكان النزيف قدر استطاعته و بالفعل بدا النزيف يقل بعض الشىء حين اتت بنصل تكوى به الجرح و ربطته جيدا بقوة ، تعجب لها الرجال الذين التفوا حولهم ، فقد عيسوى الوعى بعض الوقت ، بقيت سعيده بجواره عندما ذهب البرتو بعد ان اطمئن على صديقه يتحسس اخبار دليله و يطمئن على سلامتها.

وقفت دليله و كاتيا يحتضنهما سمعان و يحمدا الرب على نجاتهم ، رأت دليله البرتو و هو يقف حائرا تبادلا الابتسام و قد اطمئن كل منهم على الاخر اما الست سكينه و التى انقلب بها الهودج من فوق الناقه فكانت تشعر بالام شديده بجانبها الايمن و يبدو انه احد اضلاعها قد انكسر ، احتضنها برهان و هو يبكى جزعا فقد كان يشعر بانه السبب فيما حدث:

"يا ليتنى لم اصر على اصطحابك معى ، سامحينى يا غالية".

حاولت سكينه التغلب على الامها:

"كل شىء نصيب ، ان شاء الله سأكون بخير".

امر برهان عبيده بنصب الخيمه لزوجته التى جرت نحوها دليله باكيه تحتضنها و تقبل يديها فتبتسم سكينه و هى تربت على راسها:

"انا بخير يا بنيتى لا تخشى شيئا ، لن يصيبنى مكروه قبل ان ازفك الى عريسك".

بدأ تجار الرقيق بالحفر فى الرمال لدفن جثث العبيد ، انهمرت دموع ابو عثمان و هو يحتضن ابنه قبل ان يدفنه و فكر فى المدة القصيرة التى قضاها معه ، لو كان يعلم ان القدر سيختطفه منه بهذه السرعه ما كان تركه يوما عند اخواله ، ما كان عامله بقسوة ، لقد مر العمر و لم يتمتع بحضن ابنه ، خمس عشر سنه لم يحضن فيها عثمان و ها هو ياخذه فى حضنه الان و هو جثه هامده ، لو تعود لك الحياة مرة اخرى يا عثمان و لو دقائق حتى تشعر كم كنت احبك يا بنى لتعرف ان قسوتى عليك كانت حبا و ان حرمانى منك كان عطاء لك ، استسلم للرجال و هم ياخذون منه الفتى و يهيلون عليه التراب و قف الجميع يصلون على الموتى و انصرف كل منهم يحاول لملمة اشيائه المبعثره و الاطمئنان على باقى القافله.

و هكذا هو الموت لا يأخذ من وقت الاحياء اكثر من دقائق ثم تستأنف الحياة دورتها ، انطلق العبيد يحاولون ترتيب الفوضى التى حلت بالقافله فيجمعون الاغراض المبعثرة و يداوون الجرحى و ينطلقون خلف الجمال التى شردت فى الصحراء ، لم يمر وقت طويل حتى بدأ الهدوء يسود المكان و النظام يعود لسابقه فبداوا فى نصب الخيام لاراحه الجميع حتى يستطيعوا استكمال رحلتهم بعد يوم او اثنين.

بدأ عيسوى يفيق و امسك بذراعه الذى لازال يؤلمه و قد انشغلت سعيدة بمداواه جراح البعض ممن تطايرت عليهم الامتعه و البضائع ، ناداها البرتو لتكمل ما بداته مع صديقه ، دخلت سعيده الخيمه و جلست بجوار

عيسوى تتفحص ذراعه بعد ان ازالت الرباط ، توقف النزيف تماما و بدأ الجرح يلتئم ، طلبت من عيسوى ان يترك الجرح عاريا و ان يستعين ببعض الاعشاب المسكنه للالام ، وقف البرتو يستمع لها فى حين ان عيسوى غرق فى عينها الفيروزيتين ، لم يتنبه لجسدها العارى بجواره ، لم يشعر برغبه او نشوة نحو تلك الجاريه الجميله و انما عيناها هى كل ما جذبتاه نحوها يريد ان يبقيها بجواره حتى يكتفى من تلك العينين.

ادرك البرتو ما يجول بخاطر صاحبه و قد فهم ما يدور برأسه من نظرة عينيه ، استفسر عيسوى من سعيده عن سبب سفرها مع القافله و عرف انه تم اختطافها من قبيلتها فى جنوب الكونغو و انها سمعت ان تاجر الرقيق قد اتفق على بيعها هى و الفتيات الخمس فى مصر ، شعر بنوع من الالفه تجاه سعيده ففكر ربما لو يشتريها هو من التاجر و يصطحبها معه الا ان تاجر الرقيق ابدى رفضه حيث انه اتفق على بيعها لطبيب شهير بدمياط و انه قبض نصف الثمن و لن يستطيع ان يتراجع عن كلمته ، حاول عيسوى ان يثنيه عن رأيه الا انه لم يستطع.

تمنت سعيده فى قرارة نفسها لو وافق تاجر الرقيق على بيعها لعيسوى فقد كانت الفترة القصيرة التى قضتها فى مداواته كفيله بان تكتشف حسن تعامله و طيبته الشديده ، لم تكن تفكر فيه تفكير امراة فى رجل رغم انه يستحق ذلك فقد كان وسيما بساما و عطوفا حنونا و لكن كل ما كانت تفكر فيه هو ان يكون سيدا لها يحمل صفات الشفقه و العطف التى لم تجدهم فى كثير ممن صادفتهم فى حياتها و كان عيسوى اهل لهذه الصفات الا ان رفض تاجر الرقيق ان يبيعه اياها قد خيب املها.

لم يستطع البرتو ان يرى صديقه يحمل اسى او هما فأخذ على عاتقه اقناع تاجر الرقيق بالاغراء بالمال تارة و بالتهديد بالوشايه به عند الحكمداريه تارة اخرى حتى رضخ و وافق على ان يتم البيع عند

وصولهم للحدود المصريه ، سعد عيسوى بهذا الخبر سعادة كبيرة حتى انه طلب من البرتو شراء ثوب للجاريه الحسناء من سوق القافلة و التى ازدادت حسنا و جمالا بعد ارتداؤه ، كان ثوبا سودانيا ازرق مطرز بالفصوص الخضراء و الحمراء مما اضاف اشراقا لوجه سعيده و عمقا لعينيها ، اثنى عيسوى على جمالها و قد بدأ يشعر بعاطفه جارفه نحو الفتاة الافريقيه ، شعر البرتو بالسعاده كونه استطاع مساعدة صديقه الحميم و تمنى لو يستطع هو ايضا التقدم لخطبه فتاته الا ان عيسوى حذره من سمعان و انه ربما لن يبارك هذا الزواج و طلب منه ان يتريث بعض الوقت قبل مفاتحته فى الزواج ، اقتربت القافله من الحدود المصريه حين ازدادت اوجاع و آلام الست سكينه و لم يجدى معها ادويه او اعشاب و احترقت دليله خوفا عليها ، لم تفارقها لحظه حتى ان البرتو انتابه القلق عليها ، و بدأ يشعر بحاسته ان هناك خطب ما يمنع دليله عن رؤيته.

،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،

" جبل طارق "

وصلت أنباء اختفاء صدقى باشا للزبير فى الفندق الذى يقيم به فى وسط القاهرة و لم يكن قد غادر بعد الى السودان ، فقد كانت الثورة المهديه يشتد تأججها بعد انضمام العديد من رجال الزبير اليها مما اشار باصابع الاتهام اليه بانه يدعمها انتقاما لما حدث لولده سليمان و عزز ذلك الاتهام اهتمامه بالطلبه السودانيين الوافدين للدراسه بالازهر من قضاء مصالحهم و التبرع لكساءهم و تسكينهم.

لم يعترف يوما الزبير بانه على صله بالثورة المهديه او انه كان يمدها بالمال او يساندها باى شكل من الاشكال الا ان ذلك لا يمنع و بحكم نشأته الدينيه انه كان معجب بشخصيه المهدى الذى استطاع فى فترة و جيزة ان يجمع حوله الآلاف و يدخل عدة بلدان فى السودان و السيطرة عليها بعد اجبار الانجليز على التراجع و قد قرر اكثر من مرة مساعدته الا ان الظروف حالت دون ذلك بحكم بقاؤه فى مصر بامر من الخديوى و ذلك لما راه الخديوى من ان وجود الزبير فى السودان قد يثير القلاقل و يؤجج نيران الثورة ان لم يكن للانتقام لمقتل ابنه فسيكون لاستعادة نفوذه و ثرواته.

دخل اثنان من الحكمداريه يرتديان الملابس الميرى و قد توجها للزبير و هو يجلس مع احدى معارفه فى شرفه الفندق بوسط القاهرة للقبض عليه قائلين:

"بمنتهى الاسف زبير باشا نحن مضطرين للقبض عليكم".

تعجب الزبير من ذلك الاجراء المفاجىء من قبل اسماعيل خديوى مصر و سأل:

"لماذا تقبضون على ؟ ما هى التهمه التى تحاكموننى بسببها ؟ ما هى الجنايه التى ارتكبتها ؟".

الا ان الضباط لم يفصحا عن سبب القبض على الزبير و اصرا على ان يصحبهما امتثالا لاوامر الخديوى.

و علم الزبير بعد ذلك ان غوردون كانت له اليد العليا فى الايعاز للخديوى بنفيه ظنا منه انه بذلك يستطيع وأد الثورة المهديه كما اخمد ثورة سليمان من قبل ، لم تتم محاكمه الزبير و انما تم نفيه الى جبل طارق حيث عكف هناك على كتابه مذكراته فى ظل الحنين للوطن و التفكر فى العمر الطويل الذى قضاه فى نضال من اجل خدمه بلاده ، لم يكن الزبير يشعر بالندم على المواقف التى اتخذها فى حياته و على المبادىء التى اعتنقها بل كان فخورا بكل تضحيه قدمها من اجل الحفاظ على وحده بلاده و الدفاع عن اراضيها و حمايه الاسلام من خلال خدمته الخلافه العثمانيه.

،و

" أسوان المصرية "

إجتازت القافله الحدود المصريه و استقرت فى اسوان بالقرب من نهر النيل ، كانت لرؤيه النهر و الزراعات على ضفاف النهر بالوانها المتدرجه بين الاصفر و الاخضر الفاتح و الاخضر الغامق وقع السحر على كل من بالقافله بعد كل هذه الايام التى اغتسلت فيها اعينهم باللون الاصفر البغيض.

نصب العبيد الخيام بالقرب من النهر مما اتاح للكثيرين الاستحمام و غسل الملابس ، فاحت رائحه شواء السمك الشهيه الذى اصطاده العبيد من النهر و اندفع الجميع لينالوا نصيبهم منها اما بعضهم الذى لم يكن زار مصر من قبل فقد وقف مشدوها امام العظمه الفرعونيه التى بدت لهم فى معابد و تماثيل شاهقه و لوحات تم حفرها على الجدران منذ الاف السنين بفن و اتقان استطاع ان يصمد طوال هذه الفترة.

بدأ عيسوى يتماثل للشفاء و يشعر بامتنان للفتاة التى اتقذت حياته حتى انه توجهه لاحد الحوانيت فى اسوان لشراء قلاده تحمل مصحفا صغيرا من الدهب مرصع بفصوص من العقيق الاحمر و جلباب مصرى اهداهم لسعيده التى فرحت بهم ، ارتدت الجلباب لتبدو كأميرة فرعونيه اتت من الزمن البعيد ببشرتها السمراء و عيناها اللامعتين ، تحسست بيدها هديه غوردون و لم تكن تنتوى خلعها فارتدت قلادة عيسوى معها ، ابتسم عيسوى و هو يرى الصليب بجوار المصحف و قد تمت الصفقه بينه و بين تاجر الرقيق الذى رفع سعر سعيده ثلاثه اضعاف حين شعر بالحاح عيسوى و رغبته الشديده فى الحصول عليها و اقتناؤها ، اما البرتو الذى كان يتحرق شوقا لرؤيه فتاته فقبع بالقرب من خيام الحريم عله يحظى برؤيتها و لو للحظه تطفىء لهيب شوقه .

خرجت دليله لقضاء بعض الحاجيات التى طلبتها الست سكينه ، تتبعها البرتو حتى اقتربت من الزراعات ، جذبها البرتو من يدها حتى حقول القصب الممتده على مرمى البصر ، استبد الشوق بالعاشقين فغابا فى قبله لم يعرفا هل طالت مدتها ام قصرت الا انها لم تروى ظمأهما فاستسلما لرغبه جارفه اطاحت بكل المبادىء و القيم التى تربت عليها دليله فلم تشعر بنفسها الا و هى مستلقيه على الارض بين احضان البرتو تهبه نفسها و تمنحه اغلى ما تملكه فتاة فى نشوة من السعاده و غيبوبه من العشق ، افاقت منها على اصوات قادمه بين الزراعات ، قامت دليله وجله تصلح هندامها و تنظر لالبرتو نظرة لم يخطىء معناها فطمئنها و ربت على كتفيها:

"انا احبك يا دليله كما لم اهوى او اعشق من قبل اطمئنى كما قلت سابقا لن يفرقنى عنك سوى الموت ، ساتقدم اليوم لخطبتك من ابيك و نقيم مراسم الزواج فى المعبد فى القاهرة".

ابتسمت دليله و هى تصدق كل كلمه قالها البرتو فلم يكن قلبها يخطىء نبرة الاخلاص و الصدق فى حديثه ، اطرقت برأسها وهى تفكر حين استطرد البرتو مبتسما:

"استعدى من الان ، امامك مده كافيه للتجهيز للعرس".

همست دليله و هى تضع رأسها على صدر البرتو:

"انا احبك يا البرتو و اتمنى هذا اليوم من كل قلبى".

تنشق البرتو رائحه شعرها و قبل رأسها فى حنان لم تلقاه دليله من قبل فى حياتها ، ودعته على امل باللقاء بعد الخطبه فى اقرب وقت.

وقف عيسوى حاملا السمك المشوى يومىء لصديقه بان يتقدم و يشترك معه فى الطعام:

"هيا البرتو ، انه شهى جدا ، لقد قاتلت من اجل الحصول على نصيب لك من السمك".

اصاب الوجوم البرتو حين دخل خيمته فاستلقى على ظهره واضعا يده على رأسه ، ساله عيسوى عما به الا انه لم يجب ، شعر عيسوى ان وجوم البرتو وراءه شيء ما ، ربما ورطه اوقع نفسه بها.

"ما بك البرتو ، ماذا حدث ؟".

سأل عيسوى بقلق حقيقى.

لم يزل البرتو واجما حين اجاب:

"لابد ان اتقدم لخطبه دليله ، اليوم".

"هل هناك خطب ما ؟ هل حدث شيء ؟".

بدا عيسوى يشعر بالخطر حين استطرد الحديث مع البرتو:

"اياك ان تكون تهورت يا البرتو !".

وقف البرتو و قد دمعت عيناه قائلا:

"انى احبها و هى ايضا تحبنى ، لقد وثقت بى يا عيسوى لتمنحنى نفسها".

بدا عيسوى يفقد اعصابه حين همس و هو يتلفت حوله و كانه يخشى ان يسمعهما احد:

"و لكن كيف للفتاة ان تفرط فى نفسها".

صمت البرتو و نكس راسه حين اضاف عيسوى.

"و لكن ماذا لو لم يوافق اباها على الخطبه ، هل تعرف ما هو مصير الفتاة ؟ القتل يا البرتو".

شعر البرتو بالخوف ، ايمكن ان يكون هو السبب فى ان تفقد دليله حياتها ؟ هو الذى لايطيق ان يمس الهواء خصلات شعرها الذهبى هل يمكن ان يتسبب بمقتلها ؟ تصاعدت الدماء فى رأسه ، حاول التماسك فلم يستطع ، خرج من الخيمه مسرعا فى طريقه لخيمه سمعان و تبعه عيسوى يحاول ان ينقذ الموقف رغم انه يعلم بكراهيه سمعان للاجانب و المسلمين على حد سواء.

دخل البرتو خيمه سمعان الذى فرغ من الطعام لتوه و كان فى ضيافته بعض التجار من اسوان ، رحب على مضض بالبرتو و صديقه و دعاهم لشرب الشاى و تدخين الشيشه ، انضم الاثنان للمجلس حين بدأ عيسوى الحديث فبدا يعدد فى مناقب البرتو و انه اليهودى المتدين و انه من اسرة عريقه فى ايطاليا و انه خلال تواجده فى مصر لا يبرح المعبد الا فى اوقات قليله و كيف ان الحكومه اوقفت له مرتب كبير لعمله فى مصلحه البريد فى السودان و لكنه ينوى بعد الزواج ان يطلب نقل عمله للقاهرة حيث مباهج الحياة و الرفاهيه لعروسه ، تعجب الجميع من حديث عيسوى الا سمعان الذى شعر ان هناك شيء ما خلف ذلك الحديث فاضطر ان يقطع الحديث قائلا بسخريه:

"و هل وجدت هذه الفتاة المحظوظه يا سيد البرتو ؟".

التفت البرتو لعيسوى ثم للحاضرين كان صوته يرتعش.

"نعم و اتمنى ان يوافق ابوها على الاقتران بها".

فهم سمعان المغزى من وراء حديث عيسوى و البرتو و كاد يفقد اعصابه الا انه آثر التروى حتى يتاكد من ظنونه استطرد عيسوى قائلا:

"لقد سمع البرتو ان لديك ابنه يا سيد سمعان و يريد ان يحظى بشرف مصاهرتك ، فما قولك".

انتفض سمعان واقفا و قد صدق حدسه و لكن كيف يجروء هذا الايطالى ساعى البريد ان يتقدم لخطبه ابنه سمعان اكبر تاجر للحلى و المجوهرات فى السودان !! من اين له ان يعرف ان لى ابنه فى سن الزواج ؟ هل يمكن ان يكون رأها من قبل ؟ هل يتتبع هذا الايطالى عوراتنا نحن العرب فيتعرف الى نسائنا و يتخير من بينهن ؟ طالت لحظات الصمت حتى اضحت عقودا ، وجه سمعان الحديث الى عيسوى:

"سمع من من ؟"

التفت للحاضرين.

"هل يعرف احدكم ان لى ابنه فى سن الزواج ؟".

انكر الحاضرين معرفتهم بهذا الامر و حاول بعضهم تبرير الامر بالسفر و طول المده فى الصحراء ربما يكون العبيد من ينقلون الاخبار و الاسرار ، استمر سمعان بتوجيه حديثه الى عيسوى فى تجاهل تام لوجود البرتو:

"و لكن الا تعرف يا سيدى اننا نحن العرب نعتز بعروبتنا و لا نزوج فتياتنا للاجانب ، هل تقبل ان تزوج ابنتك لاجنبى يا سيد عيسوى ؟".

لم يكن عيسوى يشعر برغبه فى الدخول فى نقاش مع سمعان حتى لا ينحرف عن الهدف الذى قد اتى من اجله و حتى لا يفوت الفرصه على صديقه ، رغم كراهيته الشديده لسمعان حاول السيطرة على رغبته الشديده فى لكم وجهه هذا البغيض.

انطلق سمعان فى حديث للتجار الحاضرين:

"و لكنى رجل عربى و لا اقبل ان تكون دماء احفادى الا دماءا عربيه".

"ماذا تعنى يا سيد سمعان"

قالها البرتو بعصبيه.

"يعنى طلبك مرفوض ، لن ازوجك ابنتى ، ابحث لنفسك عن نسب اخر".

كان سمعان يبث سمه و كراهيته لعيسوى و البرتو فى كل كلمه ينطق بها.

"و لكن ...".

هم البرتو ان يستطرد فى الحديث حين امسك عيسوى بكتفه و قام فجذبه معه للخروج من الخيمه و هو يعتذر من الحاضرين ، خرج البرتو و كاد يفقد صوابه من رفض سمعان ، دلفا الى خيمتهما و قد استشعر عيسوى الخطر فيما هو قادم.

مادت الارض تحت اقدام دليله حين سمعت من كاتيا ان عريس خواجه تقدم لها و ابوها رفض حتى كادت تفقد الوعى و لم تكن كاتيا تقصد بحديثها الا اغاظه دليله و لم تتوقع ان تكون هذه رده فعلها مما اثار الشكوك مرة اخرى فى الفتاة ، انزوت دليله فى ركن الخيمه تبكى بحسرة و اخذت الست سكينه التى تزايدت عليها الاوجاع و باتت تشعر بالوهن و المرض يثقل جسدها تواسيها و تشد من ازرها و لم يكن احد يعلم بما يختلج فى قلب دليله من خوف شديد ، لم تكن تدرى ما الذى يمكن ان تفعله حتى تنقذ نفسها من مصير محتوم ، استأذنت سعيده فى دخول الخيمه للاطمئنان على الست سكينه و قد استعان بها عيسوى فى محاوله لانقاذ صديقه و فتاته ففكر انه لا حل سوى الهروب و اعلان الزواج فى اقرب بلد حتى اللجوء للقنصليه فى القاهرة لحمايته.

ادعت سعيده انها قامت بتحضير بعض الاعشاب المسكنه للالم من اجل الست سكينه و طلبت من دليله ان تساعدها فى تسخين الماء من اجل غلى الاعشاب ، كانت دليله واجمه حتى اضطرت سعيده لجذبها من يدها و حين خرجا سويا من الخيمه ، همست سعيدة فى اذنها ان البرتو سوف ينتظرها قبل شروق الشمس فى المعبد القريب حتى يرحلا سويا و يتزوجا فى اقرب بلدة ، اصاب دليلة الذهول مما يحدث فأومأت بالموافقه.

اما كاتيا التى كانت تراقب ما يحدث و تتربص بدليله بعد ان استشفت ما يجرى حولها حتى انها سألت عن الفتاة السمراء و عن الماء الساخن حين رجعت دليله للخيمه وحيده الا ان دليله لم تكن فى حال يسمح لها بالتفكير او الكلام ، استولت عليها حاله من الخوف و الوجوم اكدت شكوك كاتيا التى لم تنم فى تلك الليله.

لم ينم البرتو و صديقه ، جلسا بجوار خيمتهما يترقبا الوقت ، خلد الجميع للنوم ، ودع عيسوى صديقه ، احتضنه بشده و ربت على كتفه لتشجيعه و اوصاه ان يطمئنه على اخباره فى اقرب فرصه ، تملك عيسوى الحزن لفراق البرتو و لم يكن يدرى هل ستسمح الظروف برؤيته مرة اخرى ، اعطاه الصندوق الذهبى هديه دليله و الذى كاد ان ينساه للمرة الثانيه ، دمعت عيناه و هو يراقبه يبتعد نحو المعبد الذى لم يكن يبدو منه سوى رؤوس اعمده شاهقه كانها اشباح تراقبهم من الاف السنين.

لم تنم سعيده ايضا تلك الليله شعرت بالخطر يقترب من دليله و رغم انها لم تعرف دليله قبل اليوم الا انها شعرت بالشفقه نحوها و اختلطت مشاعرها بين الخوف و الرجاء و دارت العديد من التساؤلات فى ذهنها ، لماذا يتحكم سمعان فى ابنته ؟ اليست حرة فى ان تختار شريك حياتها ؟ حينما كانت هى حرة اختارت هارون و تزوجته بمباركه جدها ، و

ماهى الحرية ان لم تستطع دليله ان تختار ، ان لم تكن لديها الشجاعه لتعبر عن رأيها بالموافقه او الرفض ؟ هل قدر للمراة الا تكون حرة ابدا ؟ هل فضل الخالق الرجل على المرأة بالحريه ؟ و لماذا ؟

رفعت رأسها للسماء علها تجد اجابه ، اخذت تراقب خروج دليله من الخيمه فى قلق و دعت الله و الارواح الطيبه ان تساعدها ، سارت دليلة على اطراف اصابعها حتى خرجت من الخيمه و اطلقت ساقيها للريح و قد تملكها الذعر ، تلفتت خلفها لاهثه و قد استبد بها الخوف و تطاير شعرها فى كل اتجاه بفعل رياح الخريف البارده و نزفت قدماها من اثر الرمال و الصخور التى كانت تجرى فوقها حتى قاربت على الوصول للمعبد و قد بدات الشمس تلقى اشعه رماديه على الكون حولها و عيسوى و سعيده يراقبانها و هى تبتعد ، خرج البرتو لملاقاتها,

فجأة امتدت يد تكمم فاهها و انغرز نصل سكين فى صدرها ، كانت كاتيا تشاهد بشماته سمعان و هو يقتل ابنته و قد وشت لسمعان بالشكوك التى ساورتها تجاه الفتاة و سلوكها حين تقدم البرتو لخطبتها فلم يجد بد من مراقبتها حتى رآها و هى تتجه نحو المعبد بعد ان رأى البرتو يسير فى نفس الاتجاه فتاكد من ظنونه و قرر ان يتخلص منها قبل وصوله للقاهرة حتى لا يقع تحت طائله القانون و قد الهبت كاتيا شعوره بالخزى و العار قائله:

"ربما لم تكن المرة الاولى التى تفرط فيها ابنتك ، الجميع على علم بما يحدث ، الفتاه جعلت منك مضغه فى افواه التجار و العبيد ، هذه نهايه تدليلك للفتاه ياسمعان".

حاول سمعان ان يجد لدليله مخرج من هذه الازمه ، كان يحدث نفسه ان يتركها تهرب و يتبرا منها ، لم تكن نفسه تطاوعه على قتل الفتاه لولا ضغط كاتيا على اعصابه.

لم تمنح لسمعان الفرصه ليتردد فقرر ان يثأر لشرفه و يقتل الفتاه ، بات ليلته يتذكر ليله ولاده دليله ، لم يحزن لانها فتاه و لانه لم ينجب ذكرا يعينه على مصاعب الحياة بل كانت سعادته كبيرة حين رآها فتاة جميله ، ابتسامتها ساحرة ملكت قلبه و خاصه بعد وفاه امها ، شعر نحوها بحنان جارف و هى الفتاه المطيعه التى لم تعص له امر من قبل ، مسالمه متدينه ، و لكن تغيرت الاحوال بعد وفود تلك العقربه كاتيا ، دائما تعنفه على تدليله لابنته و تحاول الاستئثار به و باموااله ، بكى سمعان طويلا و هو يتمنى ان تكون كاتيا مخطئه فى ظنونها و لكن حين رأى دليله تجرى تجاه المعبد طار عقله و اصبح كالمجنون و خلفه كاتيا ، تلك الحيه السامه.

لم يفق سمعان الا و دماء ابنته تسيل بين كفيه فجذبها من شعرها على الارض و بدا يسحبها نحو النهر بينما جلدها يتفسخ من اثر الصخور و الاحجار ، القى بها فى النهر الذى كان مرتع للتماسيح فى ذلك الوقت من العام ، وقف ينظر لجثتها و النهر يبتلعها و اختلطت دموعه بمياه النهر الذى كان شاهدا صامتا على تلك الجريمه النكراء.

وقف البرتو خلف احدى جدران المعبد يراقب مذهولا مما يحدث ، متعجبا من تصرفه الجبان ، كيف لم يدافع عن فتاته ؟ كيف تركها تموت هكذا ببساطه امام عينيه ؟ لماذا لم يمت معها ؟ بدأ يضرب وجهه بكفيه و يصرخ:

"ايها الجبان ، لقد كانت هى اشجع منك فى ملاقاه الموت ، ايها الجبان".

الا ان عيسوى الذى لحقه خوفا عليه حاول ان يسيطر على ثورته و نصحه بالهروب بعيدا بسرعه قبل ان يتنبه سمعان لوجوده فيقتله ،

رفض البرتو مغادرة المكان ، و انهار باكيا بين احضان عيسوى الذى بادره قائلا:

"هون عليك يا اخى ، لم يكن بيدك شىء تسطيع فعله".

وقفت سعيده امام النهر باكيه تبحث عن اثر دليله ، مشهد سمعان و هو يسحب دليله من شعرها نحو النهر ذكرها بنفسها و ذلك الوحش الادمى يسحبها من قدميها لاغتصابها ، نعم الموقف لا يختلف ، لقد اغتال سمعان حق دليله فى الحياة كما اغتال الوحش انسانيتها ، نحن نفس الشخص يا دليله ، انحنت سعيده لتلقط سوارا يخص دليله وضعته حول يديها نظرت اليه و هى تتذكر بشفقه صاحبته و قد ابتلعها النهر.

علت اصوات صراخ قادمه من الخيام نبهت سعيده من شرودها فاندفعت تعرف سبب الصراخ كان برهان جاثيا على ركبتيه و الجميع من حوله يبكون ، لم تتحمل الست سكينه ان تسمع ما حدث لدليله فأسلمت الروح باكيه ، بكاء برهان على زوجته كان يذيب الحجر حتى اصطحبه عيسوى و حسان لخارج الخيمه حتى يقوم النساء بالاهتمام بجسدها استعدادا للدفن.

انطلق سمعان و زوجته كاتيا و عبيدهما فى طريقهما الى الاقصر و منها الى قنا للاستقرار بها بعض الوقت خوفا من وشايه عيسوى بهما الى الشرطه ، شعر سمعان بالحنق تجاه زوجته التى دفعته لتخلص من ابنته الوحيده ، لماذا كانت كاتيا تضغط على رجولته ؟ ربما لم يكن ليقتلها لولا كاتيا و الحاحها و معايرتها له ، ربما كان يغفر لها او يتبرأ منها و يتركها لحال سبيلها ، حملت نظراته لكاتيا كراهيه شديده و هو يتذكر ابنته و هى تقبل يديه ليسامحها و الدماء تسيل من جسدها النحيل فيخفى وجهه خشيه ان ترى كاتيا دموعه فتتهمه بالضعف و قله الحيله.

اضطر عيسوى للمغادرة تاركا البرتو على ضفاف النهر رافضا ان ينضم للقافله او ان يترك المكان ، كان قلب عيسوى يتمزق من اجل صاحبه و لكنه تصور انها فترة حزن يمر بها البرتو و ربما يعود سريعا لرشده.

و تخلص حسان من البضاعه التى ابقت عليها العاصفه بعد تلف الكثير فقام ببيعها للتجار فى اسوان و قد آثر الانتظار لحين رجوع الريس قاسم فى رحله العوده الى السودان.

و برهان الذى تملكه الحزن لدرجه لم يعد لديه الرغبه فى المتاجرة او العمل فقد اوكل مهمه بيع البضاعه لاحد مساعديه المخلصين و قرر البقاء بعض الوقت بجوار قبر زوجته سكينه قبل الرحيل مرة اخرى للسودان.

،‘

" إمبابة ـ القاهرة "

أكمل الريس قاسم رحلته بعيسوى و نوقه خلال قرى الصعيد مارا بالريف المصرى حيث استطاع تاجر الرقيق بيع الفتيات الخمسه الاخريات.

و كانت احداهن من نصيب طبيب شهير و الاخرى من نصيب احد نواب البرلمان اما باقى الفتيات فقد تم تسليمهن لاحدى دور بيع العبيد و كانت هذه الدور لازالت متواجده فى القاهرة ليقوم من خلالها بيع و شراء العبيد للوجهاء و اصحاب المقامات الرفيعة ، و الجاريات الشركسيات هن الاعلى سعرا يليهم القادمات من صربيا و كرواتيا و ابخسهن ثمنا هن الافارقه السود.

وصلت القافله امبابه حيث اشرف عيسوى على نحر النوق بنفسه فى الساحه الكبيرة ، يتم نحر ناقه تلو الاخرى ، مشهد الذبيحه و هى راقده على الارض يسحبها التاجر ثم يمر بالنصل على رقبتها فتسيل منها الدماء و ترتعش فى حركات لا اراديه حتى تخمد تماما و تسلم الروح كان يصيب سعيده بالغثيان فبدات تفرغ ما فى بطنها مع حاله من البكاء انتابتها دون توقف و قد اعاد لها هذا المشهد كل الذكريات السيئه ، وقفت تنظر للذبيحه و قد تذكرت ما حدث لدليله و ما حدث معها و سالت نفسها ، ما هو الفرق بينهما و بين تلك الذبيحه ؟ هل يمكن ان تكون المرأة خلقت ذبيحه للرجل فيفعل بها ما يشاء دونما حساب او عقاب ؟

زاد توعك سعيده حتى ان عيسوى اضطر لاصطحابها للدار و قد اسند مهمه توزيع اللحوم على محلات الجزارة و المطاعم و الاعيان لبعض مساعديه ، كان لعيسوى اربعه من الزوجات على ذمته اثار استيائهم ان يتخذ زوجهم خليله سوداء الا انه لم يكن يعير اهتماما لغيرة النساء و

مكرهن فبدا فى ترتيب مكان اقامه سعيده بنفسه فى ركن من اركان الدار بعيدا عن الاخريات و امر بتحضير الطعام و العنايه بسعيده و اوكل هذه المهمه لخادمه مصريه ريفيه.

نظر عيسوى باندهاش لسعيده فى الفستان المصرى الاسود الطويل بياقته البيضاء الواسعه و قد حدد خصرها بحزام اسود من نفس قماش الفستان و الازرار اللامعه فوق صدرها و قد رفعت شعرها للخلف فبدت عيناها فى ضوء الشموع كنهر جارى يحمل معه كل الخير و الشجن فى ذات الوقت.

مرت الايام و قد اعتادت سعيده حياتها الجديده و باتت تعرف كل صغيرة و كبيرة فى الدار الواسعه و تعلمت الكثير عن دينها الجديد و قد اعلنت لعيسوى رغبتها فى ان تدين بالاسلام فطاوعها و لبى رغبتها فتولى بنفسه تعليمها اصول دينها فى كيفيه الوضوء و الصلاة و الصيام و كأنما قد وجد فيها السلوى عن غياب صديقه البرتو الذى رفض ترك اسوان و مكث هناك بجوار النهر و كأنه ينتظر عوده دليله مرة اخرى و ربما حاله سعيده الصحيه و ما اصابها من تعب و وهن اثناء وجودها فى مصر هو السبب وراء الاهتمام الزائد من عيسوى مما اثار استياء زوجات عيسوى فاضحين بأنهن يكرهنها بشدة و يشعرن بانها استطاعت الاستيلاء على قلب عيسوى و ربما تسحب البساط من تحت ارجلهن و بدأن يحيكن لها المكائد و الحيل للوقيعه بينها و بينه الا ان سعيده استطاعت ان تتجنب الوقوع فى براثن حيلهن بل حاولت كسب ودهن دون جدوى فاثرت الابتعاد عنهن و تجنب الدخول معهن فى صراع و لم تكن سعيده تعرف و هى التى تتمتع بروح قتاليه ، لماذا لم تكن تستدعى هذه الروح فى الدفاع عن علاقتها بعيسوى ؟

كانت تحتار فى مشاعرها تجاه عيسوى ، لم تكن تشعر نحوه بالحب الجارف كما شعرت تجاه هارون و انما يربطها به نوع من الشعور

بالامان و الالفه و الموده و قد عمق هذه المشاعر حسن تعامل عيسوى معها و رحمته بها حتى ان قلبه كاد ينخلع عليها حين فقدت وعيها ذلك اليوم فى حديقه الدار حين اصطحبها عيسوى لتناول الافطار فى الحديقه مع زوجاته الاخريات و بمجرد ان وضعت قدمها على السلم المؤدى للحديقه حتى فقدت وعيها و وقعت عن السلالم ، حملها عيسوى و استدعى الطبيب للاطمئنان عليها ، لحظات قاسيه مرت ببطء حتى خرج الطبيب ليعلن لعيسوى ان سعيده كادت أن تفقد الطفل الا ان عنايه الله انقذته.

شعر عيسوى بعد بشارة الطبيب بالطفل الذى سيولد له بشىء من الارتباك و زاد من ارتباكه فرحة الخدم بالخبر فعلت الزغاريد فى ارجاء الدار و بدأوا بتهنئته و انتشر الخبر بسرعه بين مساعديه فتوافدوا عليه لتهنئته ، بدا عيسوى واجما فى ظل كل مظاهر الفرح المحيطه به فلم يكن واثقا بان هذا الطفل هو من نسله ، ان سعيده لم تمكث فى داره اكثر من اسابيع قليله ، هل يمكن ان تحدث المعجزة فى تلك الايام القليله ؟ هل تتحقق نبؤة العرافه بان علاجه و فك السحر المعقود له سيكون فى السودان ؟ هل يمكن بعد العمر الطويل و المحاولات الكثيرة ان يرزقه الله بالطفل الذى يتمناه ؟ هكذا بين طرفه عين و انتباهتها ؟ و اذا لم يكن الطفل طفله ماذا يكون مصيره و مصير امه ؟ هل يحتفظ بهم فى داره املا فى انجاب طفل اخر من صلبه ام يتخلص منهما ؟ كان عيسوى قد شغف حبا بسعيده و لم يكن ينتوى التخلص منها ففكر انه قد يقبل بوجودها هى و طفلها فى الدار و حاول ان يسعد بالخبر و يؤجل القلق لحين ولاده الطفل فزاد اهتمامه بسعيده و بدأ يغدق عليها من حبه و حنانه انتظارا لليوم الموعود.

انهى الريس قاسم مهمته و جلس يستريح لشرب الشاى و تدخين الشيشه ، تذكر سنية تلك الافعى المصريه التى دلفت الى قلبه فلم يستطع منها

فكاك و حبب اليه تجرع السم منها دون اكتفاء و قد اقسم على نفسه من قبل الا يزورها مرة اخرى حفاظا على رجولته و مبادئه الا ان وجوده فى امبابه قد قذف فى قلبه الحنين لصوتها و لمسه يديها ، بدأ يتنشق الهواء و يستشعر انفاسها فى المكان و كأنما عطرها ينفذ اليه من خلال مشربيتها فى نهايه الطريق فيخنق ما تبقى من نخوة و كرامه داخله ، دفع حساب الشاى و الدخان على عجل و كأنما تذكر فجأة موعد هام كان قد نسيه ، انطلق فى اتجاه دارها كالمسحور ، رفع عينيه للمنزل المبنى بالاحجار بمشربياته القديمه ، صعد الطابق الثانى مارا على بعض النسوة يخبزن فى الدور الاول ، اصلح هندامه و خارت قواه حين سمع صوتها تسأل عن الضيف القادم.

"انا الريس قاسم ، افتحى سنية".

نبرة الترحاب فى صوتها و الدفء فى عينيها سبقاها حين فتحت الباب ، احتضنها قاسم بشوق رجل فى الخمسين من عمره يلهث للحاق بالعربه الاخيرة من قطار السعادة حتى لو كانت سعادة مزيفه يدفع ثمنها من رجولته ، اعطته هى من انوثتها و اغراؤها بما يفيض عن حاجته و بما يتناسب مع المبلغ الذى يجود به فى كل مرة و قد استطاع قاسم ان يعتنق فكر جديد يريح ضميره و يسكت كرامته و هو ان سنية تعشقه هو و مخلصه له فى افكارها اما جسدها فهو اكل عيش تتكسب منه كما يتكسب الفتوة من قوته ، كما يتكسب العامل من صنعته و هذه الفكرة هى التى اراحت عقله و قلبه فارتضى ان يكون رقم من بين الارقام و عشيق من العشاق و كلما تحركت النخوة يداخله ليله بين احضان سنيه كفيله باخمادها.

ارتمت سنية على السرير النحاسى و قد انهكها اشتياق الريس قاسم حتى نال منها ، رفعت شعرها عن وجهها و وقعت عيناها على البقعه الزرقاء فى باطن ذراعها و تعجبت من اين اتت هذه البقعه ، لم يكن

قاسم عنيفا معها ذات يوم ، ما الذى تغير فى سلوكه ؟ هل الكبر فى السن جعله يبذل مجهودا اكبر ليثبت ذكورته بعلامات يتركها على جسدها ؟ ام شعوره بانه ليس الوحيد الذى يعبث بهذا الجسد هو ما دفعه لترك توقيعه على ذراعها حتى يثبت جدارة عن بقيه العابثين ؟

مدت يدها للمبلغ الذى تركه قاسم قبل ان يغادر و قد اعتاد فى الفترة الاخيرة ان يسرع بالرحيل مجرد ان يفضى لدلال برغبته ، لم يكن المبلغ زهيدا و لكنه اقل كثيرا مما كان يتركه لها من قبل ، مصمصت دلال شفتيها حسرة و وضعت المبلغ فى صدرها و قد لمعت دمعه سكنت مقلتها و ابت ان تسقط فجفت فى عينها فاستندت على ظهر السرير ترتشف قدح من الشعير قبل ان تبدل ملابسها و تعود الى دارها حيث تتحول فجأة لربه منزل و ام لثلاثه اطفال توفى ابوهم تاركا اياهم لينحنى ظهرها فى تربيتهم ، لم تكن يوما امرأة فاسده قبل وفاة زوجها بل كانت زوجه وفيه و امراة شريفه يركب زوجها البحر تاركا لها الاطفال و يعود بعد اسابيع عديده فيجدها كما تركها صاغ سليم ، لم تنكشف على رجل و لم تمتد لها يد غريب و حين تشتكى لامها غياب الزوج وقسوة الوحدة تنهرها و تعنفها.

"الزوجه لا يحق لها الشكوى او الشعور بالوحده ، الزوجه فى بيت زوجها كالجاريه بين يد مولاها لا ينبغى لها التذمر ابدا".

تعلمت ان تكتم شكواها فى صدرها و ان تقنع من الحياة بما تمنحه ، تنتظر قدوم زوجها من رحلته فتعد اطيب الطعام و تتزين فيمضى معها يوم او اثنين و يودعها و يرحل ثانيه حتى كانت تلك الرحله المشئومه التى تعرض فيها الزوج لحادث لم تعرف تفاصيله و لكنها تألمت من اثاره بما يكفى فقد بدأ زوجها فى العزوف عنها و الزهد فيها حتى انها كادت تشك فى حبه لها لولا غيرته الشديده عليها فقد بات يشك فيها و فيمن حوله من اخوة و اقرباء فابتعد عن الجميع بعدما افتعل المشكلات

معهم ، اما هى فبدأ يأخذ كل كلمه منها على محمل اخر ، ان سألته عن صحته يظن انها تعايره بعجزه و ان حدثته عن عمله يتوهم انها ربما على علاقه مع احدهم ، اذا فتحت المشربيه يسألها علام تنظر و اذا خرجت لتقضى حاجه لها من السوق ينهال عليها ضربا حتى اصبحت حياتها جحيما و اصبح الليل يمر عليها طويلا كئيبا و هى الشابه الجميله فى العشرين من عمرها و اصبحت نفسها توسوس لها كل ليله ان تفر من هذا الجحيم او على الاقل ان تبحث عن السعاده فى مكان اخر.

تقلبت سنيه فى الفراش و وقعت عيناها على صورتها فى المرأة بجوار السرير ، نظرت للبقعه الزرقاء فى ذراعها و لوجهها و قد بدات بعض التجاعيد الخفيفه تزحف عليه رغم محاولات اخفائها بالمساحيق ، عشرة اعوام مرت على وفاة الزوج ، انها تذكر ذلك اليوم و كانه لم يمر عليه ساعات ، اتوا به محمولا على اكتافهم و قد لفظ انفاسه الاخيرة و رغم انها قامت بالواجب من نواح و بكاء و عويل الا انه بينها و بين نفسها كانت تشعر بانه تأديه واجب ، قد تكون حزينه على اطفالها الذين كتب عليهم اليتم او مشغوله البال بنفقات الحياة الا انها لم تشعر بحزن امرأة فقدت زوجها بل انها كانت تختلس النظر لكل رجل اتى لعزاءها و تتعمد ان تترك يدها فى يد المعزيين اطول فترة حتى تختبر مشاعرهم تجاهها و تجاه المرحوم زوجها ، من يتعامل مع المرحوم على انه اخ عزيز يؤدى واجب العزاء دون ان يرفع بصره او يمد يده و من يعرفه معرفه سطحيه يمد يديه و عينيه بفضول.

و يبدو ان اللعبه اعجبتها ، كلما لمحت الرغبه فى عين احدهم تمادت فى دلالها و تظاهرت بنوبه من الحزن الشديد التى تنتهى بفقدانها الوعى فيضطر الى حملها و وضعها فى السرير فتشعر بلذه غريبه و هى تبث انفاسها الحارة فى اذنيه و تتحسس عضلاته بكفيها فتسرى النار فى

عروقه و يرتبك و تنتابه الحيرة مما يشعر ، هل يصدق ما يراه من حزن يكاد يفتك بزوجه مخلصه ؟ ام يصدق تلك اللمسات و الانفاس المريبه ؟ تعجبت من افعالها ، هل اصابها الجنون ؟ هل انتابها مرض عقلى ؟ انها ذاتها المراة الشريفه المخلصه لزوجها ، ما الذى تغير فيها بعد موت زوجها ؟ هل يمكن ان يكون للشرف اسباب اذا زالت تلك الاسباب زال معها ؟ هل شرف المرأة مرتبط بوجود زوج على قيد الحياة حتى لو كان عاجزا فاذا مات هذا الزوج ماتت معه عفه المرأة ؟ هل كل النساء مثلها ام انها حاله مختلفه ؟ هل شعرت امها بعد وفاه ابوها بمثل هذه الاحاسيس التى تجتاحها ام ان الشيطان يسكنها هى فقط دون بقيه النساء ؟

لم تكن تعرف سببا لما تفعله و لكنها لم تكن تستطيع التوقف حتى تغيرت قواعد اللعبه ، كان شابا وسيما تركت له يدها فلم يمانع ، فقدت وعيها و بدلا من ان تتحسس عضلاته كان هو يمر بيديه على جسدها قبل ان يحملها و يتعمد قبل ان يضعها فى سريرها ان ينحنى بها حتى تكاد شفتاه تلمس جبينها ، جلس بجوارها متظاهرا بالحزن على صديقه و اخوه الكبير الذى فقده فى لحظه و مد يده بمبلغ من المال قائلا بصوت يحمل معانى لم يفهمها الا سنية.

"كنت اقترضت من المرحوم مبلغ من المال هذا جزء منه ، ارجو ان يسد جزء من احتياجاتكم و سوف اقوم بسداد باقى المبلغ على اقساط".

كانت متأكده ان احوال زوجها الماديه فى الفترة الاخيرة مضطربه و انه لم يكن ليقرض احدا الا انها مدت يدها لتأخذ المبلغ من الشاب و تشكره و ربما مدت يدها لتشعر بحرارة يديه مرة اخرى.

و توالت بعد ذلك الزيارات بحجه سداد الاقساط و فى كل زيارة يزال حجاب بينهما حتى اصبح يشاركها الفراش و اصبح القسط هو ثمن

المتعه التى ينالها كل شهر ، انصهرت سنية فى تلك العلاقه عشقا و غراما ، تريد تعويض ما فاتها من الشباب و المتع حتى حينما امتنع عن سداد القسط لم تتوقف عن عطائها ، يكفيها ما يهبه لها من حب و حنان و ما يقذفه فى قلبها من شوق و لوعه و مشاعر تمنت ان تحياها.

سبعة اشهر مرت و هى تتمرغ فى نعيم العشق و اللهفه حتى اختفى فجأة ، هكذا بكل بساطه اختفى لم تعرف حتى اليوم اين اختفى ، هل اصابه مكروه او اصابه الملل ؟ لا تدرى ، و لكنه ترك خلفه هوة سحيقه من الالم و ندبه فى قلبها لم و لن تشفى ، لم تندم وقتها على ما ارتكبته من معصيه بل لم تكن تعتبر ما ارتكبته معصيه من الاساس ، انها لم تخن زوجها بل ظلت مخلصه له طوال حياته برغم عجزه و مرضه و غيابه الا انها ظلت وفيه له توفى الزوج و تركها جائعه ، هل تلام اذا مدت يدها لطعام شهى قدمه لها احدهم ؟ هكذا كان حالها ، الجوع العاطفى لامرأة شابه هو اقسى الف مرة من الجوع المادى ، لم يكن لديها رفاهيه الوقت لتتوقف طويلا امام احزانها ، ابتلعت مرارتها و بحثت عن ممول اخر للاسرة ، كان احد التجار القاطنين فى احدى المنازل المجاورة ، يده سخيه حتى انه اشترى لها احدى الدور و كتب عقده باسمها و التى تديره الان و اصبح مكان للقاء عشاقها و اغدق عليها من ماله و صحته الا انها لم تكن تشعر نحوه باى عاطفه ، تعتبر نفسها تؤدى عملا بمقابل ، قبلاتها و صوتها و رعشه يديها عملا تؤديه باخلاص.

حتى استيقظت ذات صباح على نبأ وفاته ، هكذا بدون مقدمات ، لم يكن مريضا و لم يتعرض لحادث ، نام و لم يستيقظ ، لم تحزن لوفاته الا انها تنبهت للموت و لم يكن يشغل بالها من قبل ، فكرت فى اولادها اذا نامت فى يوم و لم تستيقظ كيف يكون مصيرهم ؟ لا يملكون مالا و ليس لديهم من يعولهم ، كاد القلق على اولادها يقتلها ، فكرت فى ان تكون

هى صاحبه العمل و مديرته فبدأت فى استغلال الدار التى تملكها ، تستقطب الفتيات المهملات و الهاربات بلا عوده من بيوت ذويهم و تقوم بتدريبهم و تعليمهم اصول المهنه ، كيف يكون لهم مريدين و عشاق ينفقون ببذخ مقابل المتعه و يمولون الدار ، اما هى فكانت ربه المكان تديره بعقل واعى و قلب من حجر حتى انه لم تكن تستطيع فتاه ان تهرب من الدار بعد ان تدخلها و اذا حاولت احداهن الهرب يكون جزاؤها ان يشوه وجهها بماء النار ، تحولت بمرور الوقت لامرأة قاسيه فى عملها ، لم تعد تمنح قلبها لاحد ، كل ما تمنحه هو مجرد جسد و بضعه كلمات و ضحكات رنانه اما قلبها فقد علقت عليه لافته مغلق للابد.

وقفت امام المرآه تزيل المساحيق عن وجهها ، ارتدت الجلباب البلدى ذو الاكمام الطويله لتخفى اثار المعركه التى خلفها الريس قاسم على جسدها و توجهت مسرعه لتحضير وجبه الغذاء لاولادها الجوعى.

،و،

" المحـكـمـــــة "

تم القبض على تاجر الرقيق و هو يبيع الفتاه الاخيرة معه لمهندس زراعى من الاعيان مما كان له اثرا كبيرا فى ان يتخذ البعض تلك القضيه وسيله لفتح قضايا الرق و العبيد من جديد حيث ان الحكومه كانت جرمت بيع العبيد قانونا و ان كان التجريم لم يتم على ارض الواقع فقد كانت بيوت الاغنياء و السرايات تعج بالعبيد الا ان هذه القضيه التى تبناها ضابط من الحكمداريه المصريه مع صحفى انجليزى قد اقامت الدنيا و لم تقعدها و السبب بالطبع هو ان احد المتورطين فى هذه الصفقه هو احد اعضاء البرلمان فاتخذتها الحكومه الانجليزيه ذريعه للطعن فى اعضاء البرلمان جميعهم و فى شرعيه برلمان يخالف احد اعضاءه القانون.

و اصبح عيسوى يواجه الحكم بالسجن هو و الاخرين لمخالفه القانون ، تلاحقت الاحداث بسرعه فتم القبض على عيسوى و بقيه الرجال بعد ان وشى بهم التاجر و بدات الصحف الاجنبيه تفرد صفحات لنشر القضيه و علت الاصوات على منابر الحريه يطالبون بتحرير سعيده و الفتيات الاخريات التى تم شرائهن و تم تحويل عيسوى و الاخرين للنيابه ثم للمحاكمه بتهمه مخالفه القانون و تم استدعاء الفتيات يوم المحاكمه لاخذ اقوالهن.

تحاملت سعيده على نفسها و توجهت لقاعه المحكمه و قد انتفخ بطنها بصورة واضحه ، لمعت عيناها حين رات سيدها يقبع خلف السور الحديدى ، سألها القاضى عما اذا كان عيسوى قد اشتراها من التاجر بعقد شراء ، اجابت سعيده بالايجاب و اندفع ممثل النيابه يتهم عيسوى و الاخرين بعدم الانسانيه حيث ان شراء انسان و استعباده ليس من الادميه فى شىء فقد خلق الانسان حرا رجلا كان او امرأة و ان عهود

الاستعباد و الرق قد ولت و اشرقت على الانسانيه عهودا من الحريه و ترعاها الحكومه الانجليزيه و تقف بالمرصاد لكل من تسول له نفسه مخالفتها او التحايل عليها ، بعد ان انهى ممثل النيابه مرافعته انبرى المحامى فى الدفاع عن عيسوى و الاخرين متعللا بامثله كثيرة من البيوت المصريه التى تمتلىء بالعبيد و الجوارى حتى ان الخليفه العثمانى بذاته يمتلك العديد من الرقيق و لم يتهمه احد بمخالفه القانون الا انه يبدو ان القاضى لم يقتنع بمرافعه المحامى فقرر توقيع غرامه على المشترين مع الزامهم بتوقيع وثيقه تحرير الجوارى ، كادت الجلسه تنتهى حين رفعت سعيده يدها تطلب الاذن لها بالحديث ، ساد الصمت فى قاعه المحكمه و تلفت الجميع للفتاه السوداء ذات البطن المنتفخ و قد ارتدت فستانها الاسود ذو الياقه البيضاء العاليه و تزينت بقلادتيها التى تحمل صليب غوردون و المصحف الذى اهداها اياه عيسوى ، اقتربت من منصه القاضى فى ارتباك لتعلن رفضها وثيقه الحريه التى تمنحها اياها المحكمه وسط دهشه الحاضرين.

اعلنت سعيده بصوت هادئ و واثق رفضها للحريه التى يمنحونها رغما عنها.

"سيدى القاضى اشكر اهتمامك و لكنى لا اريد حريتى".

مما اثار تعجب الجميع فاقترب منها ممثل النيابه يحاول ان يفهم الدافع وراء رفضها الحريه و تفضيلها ان تظل فى اسر العبوديه الا ان سعيده حاولت التماسك حين رفعت صوتها ليدوى و يصل للحاضرين بقاعه المحكمه من صحفيين انهمكوا فى الكتابه و مصورين اسرع كل منهم فى محاوله التقاط صور للفتاة.

"انا اشكركم جميعا لاهتمامكم و لكنى ارفض الحريه التى تمنحونى اياها".

تدخل احد الصحفيين الانجليز يسأل:

"و لكن هل تفضلين الرق و العبوديه ؟ ان المحكمه تهبك حريتك".

التفتت اليه سعيده و بنبرة قويه لا تصدر الا من مقاتله:

"و هل الحريه هبه تمنح يا سيدى ؟ ان الحريه حق يكتسب و ليس هبه".

اقترب منها ممثل النيابه يتسائل:

"و لكن اذا لم تكن لديك القدرة على اكتساب حريتك فنحن نمنحك اياها ، نحن نمنحك وثيقه تشهد بانك امراة حرة لست ملكا لاحد".

اطرقت سعيده مليا ثم رفعت راسها و قد وجهت حديثها لممثل النيابه تسأله:

"و اذا كنتم تستطيعون منحى الحريه اذا فلديكم القدرة ايضا على سلبى اياها ، لذلك انا ارفضها ، حينما يكون لدى القوة للحفاظ على حريتى ساحصل علىها بدون مساعدتكم هل احدكم يملك وثيقه حريه ؟ لا اعتقد ، و مع ذلك انتم احرار ، و انا كذلك ، اذا كنت لا تملك انت و لا احد من الحاضرين وثيقه حريه فلست بحاجه انا ايضا لمثلها",

تعجب القاضى من افكار سعيده التى لا تتناسب مع امرأة سوداء فعلق على كلامها قائلا:

"و لكن بدون هذه الوثيقه انت ملك لهذا الرجل".

التفتت سعيده للحاضرين فى القاعه و ظهرها للقاضى تقول:

"نعم انا اليوم اختار ان اكون ملك لهذا السيد ، اليست هذه هى الحريه التى تتشدقون بها ؟ ان يكون لى الحق فى تقرير مصيرى ؟ انا اليوم اختار عبوديتى لانى افضلها على حريه ممنوحه من الكرماء امثالكم ، اسمحوا لى ان أسألكم ، و ماذا بعد ان تهبونى حريتى ؟ انا لا استطيع

ان اكتسب عيشى او ان اعود الى وطنى كيف اذا استطيع الحفاظ على حريتى ؟ و ماذا عن الاخرين الذين نالوا حريتهم بوثيقه مماثله ؟ منهم من هلك فى رحلات عوده لا انسانيه لاوطانهم لانهم لا يملكون ثمن العوده و منهم من يعمل فى خدمه الاغنياء مقابل القليل الذى لا يكفى حد الكفاف و منهم من يعمل فى بيوت المتعه و هى لا تقل فى انتهاكها للانسان على الرق و العبوديه ، اى مصير ينتظرنى اذا ، انا قبلت بالحريه الممنوحه لى تفضلا منك ، لم تكن دليله تحمل وثيقه حريه حين اختارت ان تطيع قلبها و لم يكن ابوها يحمل وثيقه عبوديه باسمها حين اغتال شبابها و قضى عليها فقط لانها اعطت لنفسها حق الاختيار ، لم تكن كاتيا تحمل ايه وثيقه حين استعبدتها مشاعر الكراهيه و الحقد ضد فتاة بريئه فوشت بها و هى تعلم ان القتل مصيرها اعدكم حينما استطيع الدفاع عن حريتى سانالها بدون قضاء و لا محكمه حريتى هى قدرتى على الاختيار و انا بينكم اليوم اختار عبوديتى".

تعجب الجميع من موقف سعيده و شعر ممثل النيابه و الصحفيين الانجليز و الفرنسيين بالاهانه من هذه الفتاة السوداء التى ترفض هبتهم و تفوت الفرصه على كل منهم بان يبدو فى مظهر البطل و المخلص ، علت الاصوات فى المحكمه تتهم الفتاه بالذله و الخضوع و انها ليست لديها الحريه فى ان تقبل او ترفض حريتها و اذا ارتضت لنفسها العبوديه كيف تقبله للجنين القابع فى احشائها و ان مصير هذا الجنين ليس فى يدها و انه لابد ان يقرر مصيره القاضى و وقع القاضى فى حيره فلم يكن فى اى من مواد القانون الذى درسه تقرير مصير جنين تختار امه العبوديه ، توجه اليها القاضى بسؤاله عن الجنين فى بطنها:

"و لماذا تقبلى ان يولد طفلك مكبل باغلال العبوديه يا فتاة و انت اليوم تملكين مفتاح حريته بيديك".

لمعت الدموع فى عينى سعيده و تحسست بطنها و هى تتكلم عن الطفل:

"سيدى القاضى ، ربما بعد شهور قليله تاتى نفس الى الدنيا الله يعلم بها ان كانت ذكرا او انثى او ان كان ابيض او اسود و لكنى افضل ان ألده فى ظل عبوديه بغيضه ليدرك قيمه الحريه فيدافع عن حريته حتى ينالها بقوته و اذا حصل عليها لا يتنازل عنها بعد ذلك ابدا".

تم تأجيل الحكم فى مصير الجنين لجلسه اخرى لحين الاطلاع على مواد القانون التى تناسب تلك الحاله الشاذة ، وقفت سعيده تنظر لعيسوى و هو يقف فى قفص المحكمه مع الطبيب و نائب البرلمان و صاحب بيت المتعه الذى اشترى الفتيات الاخريات ابتسمت لعيسوى حين بدأ الحضور فى الانصراف و سط همهمات الاستنكار و نظرات الازدراء للفتاة السمراء.

تناقلت اخبار سعيده و رفضها الحكم بتحريرها و مصير الطفل القادم للحياه الصحف و الجرائد و بدات منظمات التحرر و التى تنادى بحقوق الانسان تهتم بالقضيه و تعلن انه ربما تعرضت سعيده للضغط او للتخويف و بدا البحث فى مشاكل العبيد المحررين و كيفيه تحسين اوضاعهم الا ان المجتمع الدولى انقسم فى قضيه سعيده لقسمين احدهما يرى ان سعيده حرة فى تقرير شأنها و مصيرها فهى لها الحريه فى قبول الحريه او رفضها و كيف نطالب لها بحريه هى مرغمه مجبرة عليها اما القسم الاخر فيرى ان سعيده ليست حرة فى ان ترفض او تقبل و انها لا تعى ما هو معنى الحريه و الا ما كانت رفضتها و لابد من اجبارها على الحريه حتى لا يكون موقف سعيده سنة تتخذها الفتيات فيما بعد و اذا كانت سعيده لا تقبل الحريه لنفسها كيف ترفضها لوليدها و هى ليس لها الحق فى تقرير مصيره.

كثر الجدال و اللغط فى موضوع سعيده التى تصدرت صورها الصفحات الاولى للصحف القوميه و الاجنبيه حتى كان موعد المحاكمه.

ساد الصمت قاعه المحكمه حين دخل القضاه ، وقف الجميع و جلست سعيده فى الصفوف الاماميه ، كانت نظرات الناس كلها تتجه ناحيه سعيده و قد علت وجهها ابتسامه غامضه ، هل كانت تدرى سعيده بفطرتها انها تضع المجتمع الدولى فى مأزق ؟ ام كان تصرفها ينبع من الخوف من الغد المجهول فأثرت ان تبقى فى ملكيه عيسوى عن ان تصبح حره و تواجه حياه لا تعرف عنها شيئا ؟ هل يمكن ان يتملكنا الخوف فيصنع حولنا اسوارا وهميه لا نستطيع منها هروبا ؟ من اجل هذا يضعون السلاسل الحديده فى ارجل الافيال حين ولادتها و تربط الدواب بالحبال فتظن الافيال رغم قوتها انها لا تستطيع فكاكا من السلاسل الحديديه و تظن الدواب انها لا تستطيع قطع الحبال ! هل كانت حياتك يا سعيده مثل حياه تلك الدواب لذلك اثرت عبوديتك ؟ تلت هيئه المحكمه نص الحكم على عجل:

"و اذ ترى هيئه المحكمه ان المتهمين خالفوا القانون لقيامهم بشراء الفتيات مقابل مبالغ ماليه فقد تم الحكم عليهم بغرامه ماليه و تم اسقاط العضويه عن السيد عضو البرلمان و تم تحرير وثائق لتحرير الفتيات الخمسه و يتم اعطاء كل منهم نسخه من هذه الوثيقه و الاحتفاظ بنسخه اخرى فى سجلات المحكمه ، رفعت الجلسه".

سادت القاعه حاله من الفوضى.

قام البعض بالتصفيق للحكم العادل و علت الهمهمات و اندفع الصحفيين لسعيده بعد ان تسلمت و ثيقه تحررها ليتعرفوا على رؤيتها للمستقبل فى ظل حصولها على حريه كانت ترفضها الا ان سعيده توجهت لعيسوى بعد ان تم اخلاء سبيله بعد دفع الغرامه الماليه ، رفعت وجهها تنظر لعيسوى تحاول ان تستشرف ما هو موقفه منها ، لم يحرك عيسوى ساكنا و ترك لها حريه الاختيار بعد ان امسكت بيدها وثيقه حريتها الا انها آثرت ان تنهى الموقف بشجاعه قبل ان تغادر قاعه المحكمه فقامت

بتمزيق الوثيقه و القت بها فى سله المهملات وسط تعجب شديد من المحيطين بها.

،،

" يخت المحروسة "

"إلى سمو اسماعيل باشا خديو مصر سابقا ، كما تعلم ان الصعوبات الداخليه و الخارجيه التى وقعت فى مصر اخيرا قد بلغت حدا من الخطورة مما يؤدى استمرارها الى اثارة المشكلات و المخاطر لمصر و السلطنة العثمانية ، و لما كان الباب العالى يرغب فى توفير اسباب الراحه و الطمأنينه لاهالى مصر من اهم واجباته و لما تبين ان بقاءكم فى الحكم يزيد المصاعب الحاليه فقد اصدر جلالة السلطان قرارا باسناد منصب الخديوية المصريه الى صاحب السمو الامير توفيق و عليه ادعو سموكم عند تسلمكم هذه الرسالة التخلى عن حكم مصر احتراما للفرمان السلطانى".

وقف الخديوى اسماعيل يعلن غضبه للقرار العثمانى بعزله و توليه ابنه توفيق حكم مصر و قد تعرض الخليفه عبد الحميد لضغوطات كبيرة من الدول الاوروبيه لعزل اسماعيل خوفا من نزعته الاستقلاليه التى ورثها عن جده محمد على و رغم محاولاته الناجحه فى تطوير الملامح العمرانيه و الاداريه و الاقتصاديه لمصر الا ان ذلك لم يكن عاملا فى توطيد حكمه بل على النقيض من ذلك كانت نجاحاته تخيف بريطانيا و فرنسا و خشى السلطان عبد الحميد ان يحذو حذوه امراء و سلاطين الدول العربيه التى تقع تحت سيطرة الخلافه فتفقد هيمنتها و نفوذها فى تلك الدول فقام بارسال ذلك التلغراف بعزل اسماعيل و توليه توفيق مما اثار غضب الخديوى و قطاع كبير من الشعب كان يطمح فى ان يكون اسماعيل خليفه لجده و صانع النهضه فى مصر.

ابلغ اسماعيل ابنه توفيق بالخبر فابدى حزنا شديدا على ما يحدث الا انه لم يستطع منع نفسه من الشعور بالسعاده لتسلم مقاليد الحكم فى مصر بعد والده فقد كان حكم مصر حلم من الاحلام التى طالما راودته و كان

يرى فى نفسه الكفاءة و القدرة على الخروج بمصر من ازمه الديون الطاحنه التى كان بذخ ابوه و سوء تصرفاته الماليه هو السبب فيها و ان سياسه ابوه اسماعيل فى التصدى للنفوذ الاجنبى هي السبب فى عزله و انه كان لابد من استرضاء الاجانب و بخاصه الانجليز و الفرنسيين اصحاب اكبر نسبه من الديون.

ثلاثه ايام مرت قاسيه على الخديوى اسماعيل و هو يودع كل جزء عزيز عليه من القاهرة العزيزة ، قصوره و ممتلكاته ، اشجار النخيل فى حديقه القصر و دار الاوبرا ، فى الغروب يأمر سائقه بالتوقف بجوار نهر النيل ليتمتع برؤيه الغروب و يتابع قرص الشمس الاحمر و هو يغتسل فى مياة النهر و يختفى رويدا رويدا حتى يسود الظلام فتدمع عيناه و يفكر فى الليالى التى سوف يقضيها بعيدا عن وطنه و كيف انه لم يتبق له الا ساعات معدوده و يعلم الله متى يتمكن من العودة لوطنه مصر مرة ثانيه او انه سيموت غريبا عن ارضه.

استقل اسماعيل يخت المحروسه متوجها الى نابولى و لم يتمالك دموعه حين وقعت عيناه على البيانو التى كانت تعزف عليه الامبراطورة اوجينى اثناء افتتاح قناة السويس و تسائل هل ستجمعه الحياة مرة اخرى باوجينى ام كتبت عليه الاقدار الفراق لكل ما يحب و يعشق ؟ حتى هذا اليخت التى كان يوما ما يملكها لم يعد له حق الاحتفاظ به ، جال ببصره فى اروقه اليخت الذى ارسل قبل اربعه عشر عاما لاستلامه من انجلترا و كان من اكبر اليخوت و اعظمها و قد سافر على متنه من قبل لدعوة الامراء و الملوك لحفله افتتاح القناة و كان لليخت جماله و ابهته و قد تنوع الطراز الذى انشأ عليه ففيه البهو الفرعونى المزين بزهور مصنوعه من النحاس و الفضه و الذهب و المداخل فهى على طراز المعابد اليونانيه ، غرف النوم على الطراز الاسلامى ، قاعه الموسيقى و المكتبه كل جزء فى هذا اليخت كانت له ذكرى سعيده

معه ، و لكن متى دامت الايام السعيده ؟ و متى كانت السعاده و راحه البال من نصيب من حكموا مصر ؟ ها هو اليوم يرحل تاركا وراءه تركه ثقيله من الديون لابنه توفيق حاملا معه ذكريات عمر مضى بحلوه و مره و خطرت له فكرة جعلته يبتسم رغما عنه ، تذكر يوم توفى اخيه ابراهيم الذى كان من المفترض ان يرث حكم مصر الا ان حادثا اودى بحياته حين سقط القطار الذى كان يستقله من الاسكندريه الى القاهرة فى النيل و غرق كل من بالقطار تذكر ان سعادته بحكم مصر فى ذلك الوقت لم تترك له مكانا او وقتا للحزن على اخيه.

"كم كنت قاسيا يا اسماعيل ، ياترى يا توفيق سعادتك اليوم بحكم مصر تغلب اسفك من اجل ابيك ؟ انها مصر تلك الساحرة الماكرة ، انها كالمرأة العنيده تعدك بالسعاده فتسكن روحك و عقلك و تسرى فى دمائك و تتخلل انسجتك و لحمك وعظامك حتى اذا ارتميت فى احضانها لا تجد الا الشوك فلا تستطيع منها فكاكا حتى ان فكرت فى الهرب يتبعك خيالها فيعكر عليك صفو الايام و الليالى".

همس لنفسه بتلك الكلمات حين استلقى على وسادته الحريريه على السرير فى الغرفه الصيفيه فى اليخت ، ليله بلا قمر و لكنها من الليالى القليله التى استطاع فيها اسماعيل ان يغط فى نوم عميق.

،و

" الخرطوم - السودان "

تزايد اتباع المهدى يوما بعد الاخر و بخاصه بعد هروب العديد من التجار و المزارعين الذين عجزوا عن سداد الضرائب الى الجنوب رغبه فى الهروب من بطش الانجليز و الحكومه المصريه فى ذلك الوقت.

و كان انتصار المهدى على العديد من الحملات التى ارسلها الخديوى و الانجليز لقتالهم سببا كبيرا فى ازدياد شعبيته و ساهم فى ذلك بعض الخرافات و الكرامات التى كانوا ينسبونها للمهدى و اتباعه حتى ان بعضهم كان يقسم بانه راى اتباع المهدى يقاتلون بسعف الاشجار فيقطعون بها الروءس و بعضهم يتوهم رؤيه الملائكه فى صفوف جيش المهدى فازداد اتباعه حتى قارب عددهم الخمسون الفا يتقدمون بلدة تلو الاخرى حتى قاربوا على احتلال دارفور.

اسرع العسكرى فيروز يجهز امتعه غوردون لانتقاله للخرطوم بعد ان تواردت انباء عن اقتراب المهدى و جيشه من دارفور ، وقف غوردون فى الشرفه يودع المكان الذى قضى به فترة كبيره من حياته حتى اصبح جزءا منه ، الاهالى الذى اصبح واحدا منهم ، يعرف الكثير عن تفاصيل حياتهم و عاداتهم ، مكتبه الذى قضى به الوقت الطويل يدير شئون البلد و يحل مشكلاتها الكبيرة و يشعر انه لم يقصر يوما فى المهمه التى اوكلت له بحفظ الامن و النظام ، جهد كبير قضاه فى محاربه تجار الرقيق حتى اوشك على القضاء عليها كليا من دارفور و السودان ، لاح له شبح سعيده و قد وقفت تلوح له و هى تبتسم تلك الابتسامه الطيبه و قد سمع اخبارها و انباء محاكمه عيسوى و تاجر الرقيق من بعض المعارف و شعر باعجاب شديد لحسن تصرف تلك

الفتاة المقاتلة ، تمنى ان تطيب لها الايام و ان يغفر له الرب خطيئته معها.

نبهه صوت فيروز:

"سيدى الجنرال ، تأمر بشيء آخر ؟ العربه فى انتظار التحرك للخرطوم".

نظر غوردون الى الجرامافون الذى طالما كان يستمع اليه هو و فيروز فى ليالى الصيف الطويله و قال بلهجه حانيه جعلت الدموع تنهمر من عينى فيروز:

"انا اهديك هذا الجرامافون يا فيروز مكافأه لك على خدمتك الطويله لى".

اومأ فيروز برأسه و هو يحاول ان يخفى دموعه.

"الامر لك يا سيدى الجنرال".

وضع الحقائب فى العربه التى تقله هو و غوردون الى الخرطوم بالرغم من ان كل المؤشرات كانت تنبىء بانتصار الانجليز على اتباع المهدى الذين كانوا يطلقون على انفسهم الدراويش الا انهم بعد الفر و الكر استطاعوا ان يقتلوا القائد الجنرال الانجليزى ثم توجهت الحمله تحت نشوة الانتصار الى الخرطوم ، كان فيروز يبكى و يعلم ان المهديين اذا استطاعوا الوصول الى الخرطوم فلابد ان قائده هالك لا محاله.

"سيدى الجنرال ، لابد ان نتصل بالانجليز يرسلوا حمله لمساعدتك".

قالها فيروز بهلع.

احتفظ غوردون برباطه جأشه.

"لقد هزم المهديين الحمله التى ارسلت لمساعدتى ، ساحاول مهادنتهم".

استطرد فيروز و قد ارتعش صوته:

"انت لا تعرفهم يا سيدى ، ان قتلك بالنسبه لهم شرف و واجب مقدس ، لن يهادنونك و لن يعقد المهدى اتفاقا".

"اذا فلاستعد لملاقتهم ، جهز لى بذلتى العسكريه".

وقف غوردون و توجه للحمام حيث اغتسل و ارتدى بذلته العسكرية حين بدات اصوات الثوار المهديين تقترب و تعلو التكبيرات تحت شرفه منزل غوردون الذى فتح الباب و توجه للخارج فى محاوله للتفاهم مع الثوار ، لم يكن غوردون كقائد عسكرى خاض العديد من الحروب و الحملات ، واجهه الموت فى العديد من المواقف يمكن ان يتسرب الخوف لداخله ، وقف باستعلاء انجليزى يأمر الثوار بالانصراف مع وعدهم بالاتصال بالخديوى و القنصل الانجليزى لبحث مشكلاتهم و محاوله الوصول لعلاج تلك المشكلات بما لا يعرضهم للمسائله او الاعتقال ، علت الاصوات تطالب رحيله و رحيل الانجليز من البلد و الاستقلال ، اندفع احدهم فى محاوله للامساك بالجنرال حين بدا فيروز بالدفاع عن قائده و انطلق اخر و ثالث و فيروز يستميت فى واجبه المقدس ، انطلق رمح من احدهم فاستقر فى بطن غوردون فوقع على الارض و انهال عليه الثوار طعنا حتى لفظ انفاسه الا ان الحماسه التى اخذتهم لم تقف عند هذا الحد فقطع احدهم رأسه و وضعه على سن الرمح و طاف به الخرطوم قبل ان يتوجهه لخيمه المهدى.

لم يكن بكاء فيروز على غوردون بكاء عسكرى سودانى على قائده الانجليزى فحسب بل كان يبكى عشرة سنين لم يرى فيها من قائده الا كل الخير و بالرغم من انه انجليزيا الا انه فى نظره افضل بكثير من قاتليه.

تدهورت حاله فيروز الصحيه بعد مقتل غوردون و لم يتقبل فكرة ان يكون له قائد سواه و لم يستطع الاستمرار فى العمل العسكرى فتم اعفاءه من الخدمه ، كان قد ناهز الخمسين من عمره حين استقر فى بلدته القديمه دنقلا بين الاهل يقضى الليالى يسرد حكاياته للاحفاد عن الحروب التى خاضها و الحملات التى قام بها مع قائده غوردون و يشعر بشىء من الفخر انه ادى واجبه العسكرى و لم يتقاعس عن خدمه قائده حتى وفاته.

تترقرق الدموع فى عينيه حين يتذكر غوردون فيتعجب من حوله من تلك العلاقه بين العسكرى السودانى و القائد الانجليزى و منهم من يظن فى الرجل خيانه الوطن و انحناءه للمستعمر الانجليزى الا ان فيروز لم تكن تخطر له هذه الافكار فقد كان يخدم وطنه من خلال خدمته لغوردون او هكذا كان يظن نفسه فقد كانت حمايه غوردون و خدمته و القيام بشئونه هى المهمه التى اوكلت اليه و لم يعرف مهمه غيرها و قد اظهر تفانيا و ابلى حسنا فى مهمته حتى اخر وقت ، كان يتعامل مع غوردون بصفته قائده و ليس بصفته انجليزيا ، ربما كان القدر الضئيل من التعليم التى حصل عليه قبل انضمامه للعسكريه و لم تتح له فرصه التفكير فى كل القضايا التى يتشدق بها الاخرون من حديث عن الحريه و الثورة ، ربما اكسبته العسكريه صفه الطاعه العمياء ، القائد هو بمثابه الاله الذى لا يمكن عصيان اوامره و التى هى بالضرورة فى مصلحه الوطن.

،و

" دار عيسوي - بولاق "

أشرقت الشمس على الحديقه التى تزينت بانواع الزهور العديده و قد تفنن الجنايني فى حسن تنسيقها فاصبحت كلوحه بديعه رسمتها يد الطبيعه.

الورود البلدى بانواعها و الوانها المختلفه ، الاصفر و الاحمر بروائحها الهادئه و الريحان برائحته الدافئه شكل اطارا لتلك اللوحه مع العديد من اشجار الفاكهه بجوار الاسوار فامتزجت رائحه المانجو برائحه الورود فشكلت عطراً متميزا لا يصنع الا فى مصر ، اما عناقيد العنب فتدلت كالياقوت الاحمر فوق التعريشه التى صممها عيسوى ليقضوا تحتها ليالى الصيف الحارة هو و سعيده فيستمتعا بنسمه الصيف الخفيفه فى هدوء و سكينه ليل القاهرة و اهم ما يميز الحديقه تلك النخله الباسقه التى تقف وحيده تنظر من عل لذلك السحر و الجمال الساكن تحتها.

اخذت الطفله ذات العامين تجرى فى كل اتجاه فى الحديقه هربا من الخادمه التى امسكت طبق الطعام بيدها و صارت تجرى محاوله الامساك بها و كلما اخفقت فى ذلك او تظاهرت بالاخفاق تعالت ضحكات الطفله و صرخاتها المرحه معلنه انتصارها على الخادمه و تأكيدا لرفضها التهام طعام لا تستسيغه و قد ورثت الملامح عن ابيها عيسوى من بشرة بيضاء و شعر اسود ناعم الا ان قوانين الوراثه لم تستطع التحايل على تلك العينين فاكتسبت عينان فيروزيتان لامعتان كعينى أمها و لم يكن ذلك فقط ما ورثته عن سعيدة لكنها قد ورثت العند و الشخصيه المقاتلة حين تعلن رفضها لشىء لم يكن هناك من يستطيع تغيير رأيها و اذا حاول احدهم ارغامها على شىء تملأ الدنيا صراخا و ضجيجا حتى يخر الكل مستسلما لها معلنا انكساره امام شخصيتها

الطاغيه ، رفعت راسها و ازاحت الخصلات عن عينيها تتأمل ذلك الغريب الذى دلف الى حديقه القصر.

كان يبدو غير مألوف للخدم و الحراس فاستمهلوه حتى استئذان سيد المكان الذى ما ان سمع اسمه فانطلق يهرول و بدت عليه علامات السعاده الشديده ، احتضن عيسوى البرتو كما يحتضن الاب ابنه الذى عاد لتوه بعد رحله غياب طويله ، الحنان المتدفق من عيسوى تجاه البرتو كان كفيلا بان يملاء عينيهما بالدموع ، بعد ان رحب بالضيف اصطحبه الى الداخل و لكن البرتو وقف ينظر بعطف للفتاة الصغيرة حين رفعها عيسوى بين ذراعيه و طبع قبله على وجنتها و قدمها لالبرتو.

"اقدم لك المدموازيل دليله ، ابنتى الجميله".

احتضنها البرتو بحب و تلعثم بكلمات قليله يعبر فيها عن امتنانه لعيسوى على اختياره لاسم دليله.

جلسا فى الصالون يرتشفون فنجانا من القهوة و قص عليه البرتو كيف قضى العامين التاليين لقتل دليله فى اسوان بالقرب من النهر و كانه كان ينتظر ان يعيد اليه حبيبته الا ان النهر كان قاسيا كأبيها فابى الا ان يحرمه منها و بعد ان طال انتظاره و كعادة القدر حين يطعننا بخنجر بيد فهو يداوينا باليد الاخرى فارسل اليه من يواسيه فى نهاره الطويل و لياليه الحزينه حين عرض عليه احدهم ان يقوم بتعليم الاطفال اللغه الايطاليه للتعامل مع السواح الطليان فوافق و وجد فى مصاحبة الاطفال ببرائتهم و حيويتهم السلوى و الصبر و اصبحت له مجموعه من الاصدقاء و اندمج فى الحياة المصريه حتى انه لم يكن يفكر فى الرجوع الى ايطاليا مرة اخرى الا عندما وصل اليه خطاب من اخته تبلغه بانها مرضت مرضا شديدا بعد ان تركها زوجها و ان الاطباء قد قرروا انها

لن تعيش طويلا و انها تخشى ان تموت و تترك اطفالها الثلاثه مشردين و طلبت منه ان يحضر للعنايه بهم فهى لا تستطيع ان تأتمن غيره على اطفالها فقرر ان يعود الى ايطاليا ليبقى بجوار اخته و اولادها ، قرر انه لن يبقى هناك طويلا ، ربما يصطحب اولاد اخته و ياتى للاستقرار فى اسوان او يرتب لهم حياة مستقرة هناك و ياتى وحده ، بالتاكيد سيعود مرة اخرى لمصر ، لن يستطيع ان يبقى فى مكان ، و جزء منه فى مكان اخر.

اصر عيسوى على ان يتناولا الغذاء سويا و اثناء الغذاء تبادلا حديثا ضاحكا عن الذكريات ، بعد الغذاء نهض البرتو مودعا عيسوى ، احتضنه عيسوى بحنان قائلا:

"لا تغب كثيرا يا صديقى سنكون بانتظارك".

طلب البرتو ان يودع دليله ، حملتها سعيده اليه بابتسامه دامعه ، قبلها و احتضنها ثم مد يده الى لفافه كان يحملها بين يديه فاعطاها للفتاة التى نظرت لامها ، مدت اناملها الصغيرة تفتح اللفه ، كانت سعادتها كبيرة حين رأت الصندوق الصغير تنبعث منه الموسيقى ، طبعت قبلة على خد البرتو و اخذت تقفز فى المكان و تتمايل بفرحة.

،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،

تمت بحمد الله و فضله

،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،

حقوق الطبع و النشر محفوظة